صراع الإبراهيميين على الأرض المقدسة

حكاية فلسطين

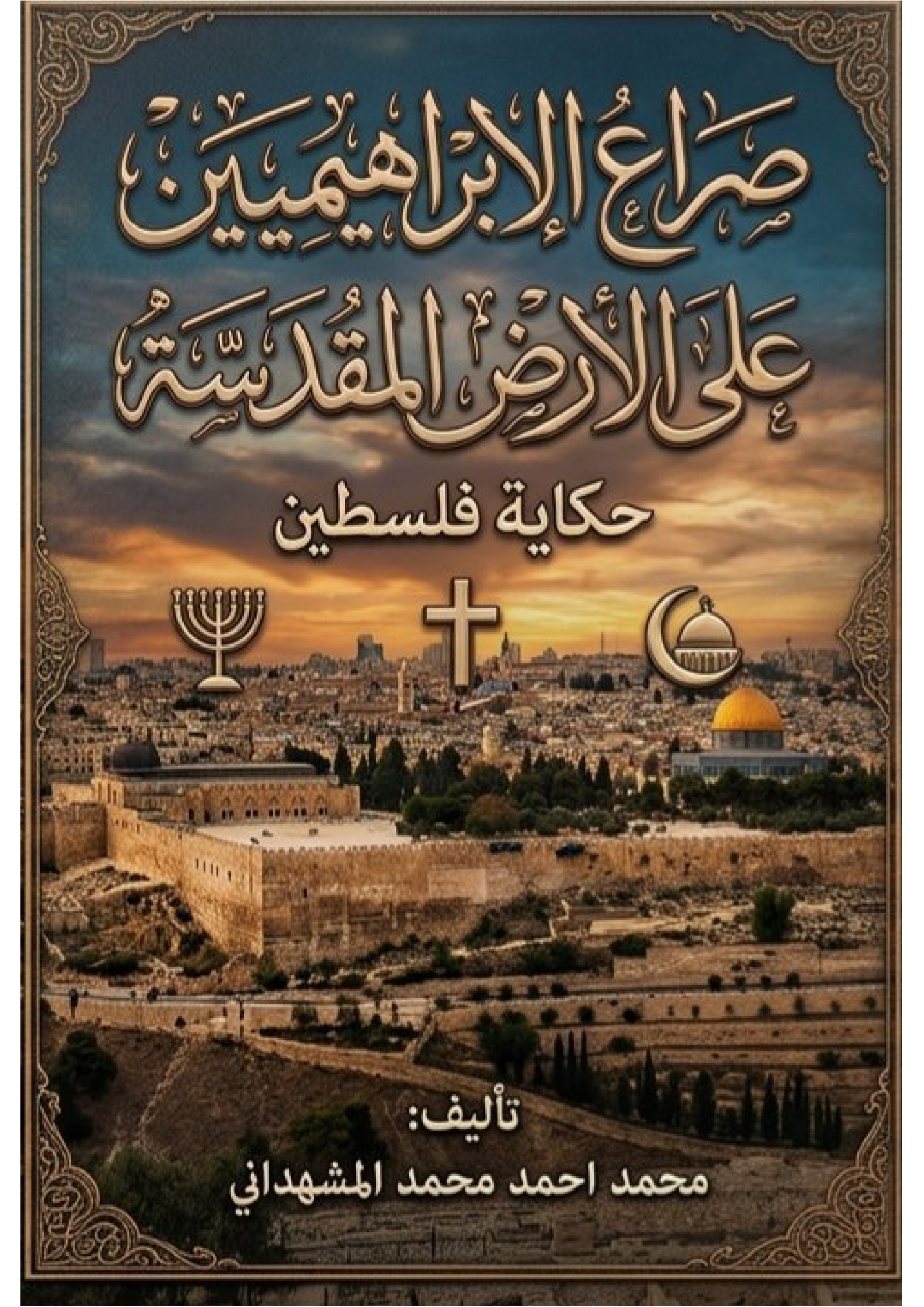

تأليف:
محمد احمد محمد المشهداني

صراع الابراهييميين على الأرض

حكاية فلسطين

تأليف محمد احمد محمد المشهداني

كشف الزيف في زمن التخريف

الاهداء

اهدي هذا الكتاب إلى شهداء فلسطين الذين قاموا المحتل الصهيوني الغاشم وإلى عوائلهم وابناهم اليتامى الرحمة والخلود لفلسطين وعروبتها

الفهرس

الفصل الاول : من هم سكان فلسطين

الفصل الثاني: الأنبياء في فلسطين

الفصل الثالث: بداية التاريخ الاسلامي

الفصل الرابع :صلاح الدين الايوبي

الفصل الخامس : المؤامرة وسرقة الارض

الفصل السادس : ما هو واجبنا اليوم

الشكر

اتقدم بخالص شكري والتقدير إلى ذلك الفلسطيني الذي العظمي واسمعني قصة ذلك الوطن الذي هز جيوش الصهاينة وضرب على وجوههم التراب.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد الأمين، وعلى إخوانه من الأنبياء والمرسلين، وعلى صحابته الغر الميامين الذين فتحوا الأرض بعدلهم، وعلى التابعين وحماة الأرض المرابطين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن الحديث عن فلسطين ليس حديثاً عن بقعة جغرافية عادية تحدها الجبال والبحار، ولا هو سرد لحكاية شعب مر بظروف سياسية طارئة كسائر شعوب الأرض، بل هو إبحار في عمق التاريخ الإنساني، وتقصٍ لأثر الوحي، وبحث في مهد الرسالات، وتلمس لخطى الأنبياء والرسل عليهم السلام. إنها الأرض التي بارك الله حولها في محكم تنزيله، وجعلها مسرى لنبيه الأكرم في ليلة الإسراء والمعراج، فصارت منذ تلك الليلة جزءاً لا يتجزأ من عقيدة كل مسلم، وشغاف قلب

كل موحد، وبوصلة أمة الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها.

لقد صيغت فكرة هذا الكتاب لتكون دليلاً مبسطاً وقوياً في آن معاً، يُخاطب الوعي ويُحيي الذاكرة، ويقف في وجه أمواج التزييف والتشويه الدولية المنظمة التي تحاول بكل ما أوتيت من مال وإعلام أن تسرق التاريخ بعد أن سرقت الجغرافيا. إن الخطوة الأولى في نصرة أي حق هي فهمه واستيعاب أركانه، ومن هنا جاء هذا العمل ليقدم لكل باحث عن الحقيقة، ولكل كاتب مبتدئ يريد التسلح بالمعرفة، إطلالة شاملة ومسترسلة تجمع بين دقة التاريخ ونور العقيدة وعدالة القانون.

إننا نعيش في زمن تداخلت فيه الروايات، وارتفعت فيه أصوات الباطل مستندة إلى أساطير مخترعة وفرع أيديولوجية ساقطة لا تصمد أمام البحث العلمي والأنثروبولوجي النزيه. لذلك، كان لزاماً علينا أن نعود بالقارئ إلى البدء؛ إلى الجذور الضاربة في أعماق التراب لنتعرف على الأجداد الأوائل، الكنعانيين اليبوسيين، الذين عمّروا هذه الأرض وحرثوا حقولها

وبنوا قلاعها ومدنها قبل آلاف السنين، فثبتوا هويتها العربية والسامية الأصيلة منذ فجر التاريخ البشري المدون.

ثم ينتقل بنا الكتاب ليتأمل موكب الأنبياء الذين تنقلوا في ربوع فلسطين؛ من إبراهيم الخليل عليه السلام وصراعه الإيماني، إلى إسحاق ويعقوب ويوسف، مروراً بداود وسليمان الملوك الصالحين الذين أقاموا حكم التوحيد والعدل، وصولاً إلى زكريا ويحيى وعيسى ابن مريم عليه السلام. ونستعرض هنا المفهوم الصافي للإرث الحقيقي؛ فالأنبياء برآء من أي مطامع عرقية أو قومية ضيقة، ودعوتهم كانت هدى ونوراً وتوحيداً، والمسلمون اليوم هم الورثة الشرعيون والوحيدون لهذا التاريخ الإيماني العظيم لأنهم يؤمنون بجميع الرسل دون تفريق ويحافظون على نهجهم التوحيدي الأصيل.

ولا يكتمل الفهم دون الوقوف عند بداية التاريخ الإسلامي الفعلي لفلسطين، حيث نعيش معاً جلال ليلة الإسراء والمعراج التي سلم فيها الأنبياء راية الإمامة

الروحية للنبي محمد صلى الله عليه وسلم، ثم نتتبع خطى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو يدخل القدس فاتحاً بزهده وعدله الكوني، ليكتب العهدة العمرية التي صارت أول دستور عالمي يحمي الإنسان ومقدساته ويثبت الملكية العربية والإسلامية للأرض.

وكما يروي التاريخ قصة الفتح، فإنه يروي قصة التحرير والاسترداد بعد سنوات الأسر الصليبي المظلم، لنتعلم من الناصر صلاح الدين الأيوبي وجيل حماة الأرض الأوفياء كيف تُبنى الوحدة، وكيف تُستعاد المقدسات بالحق والرحمة، وكيف تحولت أرض فلسطين إلى وقف إسلامي دائم لا يجوز لأحد التنازل عن شبر منه أو المساومة عليه بروابط دنيوية طارئة.

وفي المقابل، لم يغفل الكتاب عن تتبع خيوط المؤامرة الحديثة وسرقة الأرض في القرنين الماضي والحالي، بدءاً من تآمر القوى الاستعمارية لإسقاط الخلافة العثمانية وموقف السلطان عبد الحميد الثاني البطولي، مروراً بوعد بلفور الباطل والانتداب البريطاني الماكر،

وصولاً إلى كارثة النكبة الكبرى عام ألف وتسعمائة وثمانية وأربعين التي شردت أهل الأرض وأقامت كياناً غريباً على أنقاض مجتمع فلسطيني كامل ومزدهر.

وفي نهاية المطاف، يأتي هذا الكتاب ليرسم معالم الطريق للجيل المعاصر، محدداً أبعاد الواجب الملقى على عاتقنا اليوم في معركة الوعي والثقافة والإعلام البديل والنصرة المادية، ومستشرفاً في الوقت عينه بشارات المستقبل والنصر الحتمي التي تفيض بها نصوص الوحي وسنن التاريخ الكونية التي تؤكد أن الطغيان والاحتلال مهما طال ليله فإنه إلى زوال حتمي لا محالة.

إن هذا الكتاب ليس مجرد صفحات تُقرأ وتنتهي، بل هو شعلة أمل، ووثيقة حق، ودعوة صادقة للتمسك بالأرض ومقدساتها بوعي وعناد وإيمان؛ سائلين المولى عز وجل أن يتقبل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به كل من خط بقلمه أو قرأ بعقله، وأن يكون لبنة في صرح التحرير القادم، وما ذلك على الله بعزيز، والحمد لله رب العالمين.

الفصل الاول

حين تبدأ في تقصي حكاية فلسطين وتاريخها الطويل الممتد عبر آلاف السنين فإن أول سؤال يتبادر إلى ذهنك ويعتمل في وجدانك هو عن أولئك الذين وضعوا اللبنة الأولى في هذه الأرض وعمّروها منذ فجر التاريخ وثبّتوا فيها جذورهم التي لم تقتلعها عواصف السنين ولا زحف الإمبراطوريات الغازية. إن البحث عن البداية الحقيقية يأخذنا بعيداً في عمق التاريخ الإنساني السحيق حيث نجد أن الكنعانيين هم الجواب الشافي والبدء المنطقي والشرعي والوحيد لكل من يبحث عن الجذور الأصلية والعميقة لأرض فلسطين المباركة. هؤلاء القوم لم يكونوا مجرد عابري سبيل استوطنوا الأرض لفترة عابرة من الزمن ثم رحلوا وتركوها للفراغ بل كانوا قبائل عربية سامية أصيلة هاجرت من قلب شبه الجزيرة العربية في الألف الثالثة قبل الميلاد باحثة عن الاستقرار والماء والكلأ بعد أن بدأت التغيرات المناخية تفرض ظلالها على الحجاز ونجد ومحيطهما فوجدت هذه الهجرات المتدفقة في أرض فلسطين موطناً مثالياً تلتقي فيه الجبال الشاهقة بالسهول الخصيبة والبحار المفتوحة بالوديان العميقة. لم تكن فلسطين وقتها أرضاً قاحلة مهجورة ينتظر من يكتشفها من وراء البحار بل كانت أرضاً بكر تفتح ذراعيها لمن يبعث فيها الحياة والحضارة فكان الكنعانيون هم أول من حرث ترابها ونثر فيه بذور الخير وبنى مدنها العريقة التي لا نزال ننطق بأسمائها العربية حتى يومنا هذا وهي شواهد حية تنطق بعروبة الأرض

قبل أن تطأها أقدام أي جماعات أخرى بقرون طويلة وطويلة جداً تضيع في غياهب الزمن.

إن التعمق في دراسة الهجرة الكنعانية الأولى يكشف لنا عن وعي حضاري وثقافي واجتماعي مبكر جداً تميز به هؤلاء الأجداد الأوائل الذين لم يأتوا كغزاة يحملون السيوف للهدم والتدمير بل جاؤوا كبناة ومستقرين يحملون الفأس والمحراث ويبحثون عن بناء مجتمعات مستقرة وآمنة. تفرع الكنعانيون في أرجاء الأرض الفلسطينية الممتدة وأسسوا ممالك ومدناً دولية صغيرة متعاونة ومنتشرة من ساحل البحر الأبيض المتوسط الغربي إلى أعماق المرتفعات الجبلية الوسطى والوديان الداخلية المحاذية لنهر الأردن. والمدن الفلسطينية الشهيرة التي تملأ السمع والبصر اليوم في كل نشرات الأخبار وكتب الجغرافيا ليست وليدة العصر الحديث ولا هي نتاج عهود قريبة أو هجرات متأخرة بل هي في أصلها وفصلها وتأسيسها قلاع كنعانية قديمة شهدت على عروبة هذه الأرض منذ اللحظة الأولى لتدوين التاريخ البشري وقبل أن تولد الحروف الأبجدية في مناطق كثيرة من العالم.

القدس على سبيل المثال هذه المدينة المقدسة العظيمة التي تقع في قلب الصراع والقدسية والروحانية العالمية تأسست وبنيت وارتفعت أسوارها الأولى على يد قبيلة كنعانية عربية عريقة وثابتة الأركان تُدعى اليبوسيين ولهذا كان اسمها الأول والقديم

والراسخ في كافة السجلات التاريخية القديمة والآثار الطينية والبرونزية المكتشفة هو يبوس وهو اسم ينبض بالأصالة والعروبة والتمسك بالصخر والتراب قبل أن يُعرف أي وجود لبني إسرائيل أو لأي جماعة يهودية أو غربية في هذه المنطقة بأسرها بآلاف السنين. اليبوسيون اختاروا هذا الموقع الفريد فوق التلال المرتفعة ليكون حصناً طبيعياً يحميهم ويحمي تجارتهم وزراعتهم وحفروا الآبار وشقوا الأنفاق السرية تحت الأرض للوصول إلى عيون الماء العذبة مثل عين جيحون لكي يضمنوا بقاء مدينتهم حية وقادرة على الصمود في وجه أي تقلبات مناخية أو أطماع خارجية فكانت القدس منذ مهدها كنعانية الهوى واليد واللسان وظلت كذلك رغم كل المحاولات اللاحقة لطمس معالمها أو تزييف هويتها.

ولم تكن يبوس وحدها في هذا الميدان الحضاري الفسيح بل كانت هناك سيدة المدن القديمة مدينة أريحا التي تُصنف عالمياً وتاريخياً وجغرافياً كأقدم مدينة مأهولة بالسكان في التاريخ البشري كله بلا منازع وقد بناها الكنعانيون الأوائل وحصنوها بأسوار حجرية دائرية عظيمة وزرعوا حولها النخيل والخيرات الوفيرة واستفدوا من عيونها المتدفقة ليصنعوا أول مجتمع زراعي مستقر عرفته البشرية حيث كان الإنسان في بقية بقاع الأرض لا يزال يعيش في الكهوف ويعتمد على الصيد والترحال. وكذلك غزة العزة التي كانت ولا تزال بوابة فلسطين

الجنوبية وحصنها المنيع ومركز التقاء القوافل التجارية بين مصر والشام فقد أسسها الكنعانيون وجعلوها مركزاً تجارياً وعسكرياً فائق الأهمية ونحتوا في صخورها وبنوا ميناءها لترسو عليه السفن القادمة من جزر البحر المتوسط.

وإذا اتجهنا شمالاً وغرباً نجد يافا الجميلة عروس البحر التي يعني اسمها في اللغة الكنعانية القديمة الجمال أو المنظر الحسن وهي تسمية تعكس مدى تذوق هؤلاء الأجداد لجمال الطبيعة وحسن اختيارهم للمواقع الجغرافية المتميزة وكذلك عكا الأسيرة وحيفا الممتدة على جبل الكرمل ومجدو التاريخية وجنين الخضراء ونابلس التي كانت تُعرف بشكيم الكنعانية وكل هذه الأسماء والمدن والقرى المحيطة بها تحمل في أصولها اللغوية القديمة اشتقاقات وجذوراً كنعانية واضحة وصريحة لا تقبل التأويل وتثبت بالدليل القاطع أن الهوية العربية للمكان لم تكن يوماً طارئة أو عابرة أو مستوردة بل هي الثابت الوحيد والأصيل الذي لم يتغير ولم يتزحزح على مر العصور والدهور والتقلبات السياسية.

لقد برع الكنعانيون في شتى مجالات الحياة الإنسانية والاجتماعية ولم يكونوا مجرد بدو رحل يعيشون في الخيام بل صنعوا حضارة زراعية وتجارية وعمرانية وقانونية متكاملة أبهرت الأمم والممالك المحيطة بهم في ذلك الزمن الغابر من فراعنة مصر إلى ملوك بابل وآشور. لقد شقوا القنوات المائية

المعقدة لجر المياه من الينابيع إلى الحقول البعيدة واكتشفوا أسرار التربة الفلسطينية وتنوعها المناخي فزرعوا شجرة الزيتون المباركة التي صارت منذ ذلك الوقت وحتى يومنا هذا رمزاً مقدساً للأرض والتمسك بها وزرعوا كروم العنب وبساتين التين وحقول القمح والشعير وبنوا البيوت المستقرة من الحجارة الكلسية الصلبة التي اقتلعوها من جبال فلسطين وحصنوا مدنهم بأسوار وقلاع خرسانية ضخمة لحمايتها من الطامعين والغزاة.

ولم يتوقف إبداعهم الإنساني عند حدود الزراعة والبناء بل امتد بقوة إلى قطاعي الصناعة والتجارة فبرعوا في صناعة الفخار الملون ذي الزخارف الهندسية البديعة وسبكوا المعادن والنحاس والبرونز وصنعوا منها أدوات الزراعة والأسلحة للدفاع عن النفس وتفوقوا في تطوير المنسوجات الفاخرة واستخراج الأصباغ الأرجوانية الشهيرة من قواقع البحر وهي الأصباغ التي كانت تزين ثياب الملوك والأمراء في العالم القديم وكانت تُصدر إلى أبعد الممالك عبر سفنهم التجارية التي ماخرت عباب البحر الأبيض المتوسط بكل شجاعة واقتدار. والأهم من ذلك كله وأعظمه أثراً في تاريخ البشرية أن الكنعانيين والفينيقيين الذين هم أبناء عمومتهم وفرع منهم ساهموا مساهمة كبرى في تطوير الأبجدية الأولى والكتابة الخطية مما سهل التبادل الثقافي والتجاري والمعرفي في العالم القديم كله ونقل البشرية من عصور الظلام والجهل إلى عصور التدوين والحضارة فعاشوا

في وئام تام وانسجام مطلق مع طبيعة الأرض المباركة محولين إياها إلى واحة خصبة تنبض بالنشاط والحياة والازدهار الحضاري المستمر.

هذا الوجود العربي الكنعاني الضخم والمستقر والموثق لآلاف السنين يتكفل وحده وبكل سهولة بدحض وتفنيد وقلع المقولة الزائفة والفرية الكبرى والخدعة التاريخية التي روجت لها الحركة الصهيونية العالمية في العصر الحديث حين ادعت بكل تبجح وسخافة أن فلسطين كانت أرضاً بلا شعب لشعب بلا أرض. إن هذه المقولة الدعائية الساقطة والمهترئة تتهاوى وتتلاشى تماماً وتصبح كالهباء المنثور أمام صخرة حقائق التاريخ الصلبة وشهادات علم الآثار والمنطق الإنساني البسيط والمباشر إذ كيف يمكن لعاقل أو باحث أن يصف أرضاً بأنها بلا شعب وهي التي كانت تعج بالمدن الحصينة والأسواق العامرة والمزارع الخضراء والموانئ النشطة منذ العصر البرونزي والحجري الحديث وقبل أن تظهر الحركة الصهيونية أو يفكر قادتها في اغتصاب هذه الأرض بقرون متطاولة. الشواهد الأثرية والحفريات والرقيمات الطينية التي استخرجها علماء الآثار المنصفون من مختلف الجنسيات الأوروبية والأمريكية وحتى من كبار أساتذة الآثار في العالم تؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن الأرض لم تخلُ يوماً واحداً من أصحابها وبنيها الأصليين ولم تنقطع فيها الحياة الحضارية أو السكنى البشرية بل

كان هناك تدفق بشري دائم ومتصل يحافظ على هوية الأرض ويعيد إعمار ما تهدمه الحروب والغزوات الطارئة ويعيد زراعة ما حرقه الأعداء.

إن الرابط العضوي والروحي والتاريخي بين الماضي السحيق والحاضر المعاش في فلسطين ليس مجرد نصوص جامدة تُقرأ في كتب التاريخ الصفراء أو نظريات تُناقش في قاعات الجامعات المغلقة بل هو واقع حي ملموس يتجسد بكل وضوح وجلاء في تفاصيل الحياة اليومية للمجتمع الفلسطيني المعاصر في كل قرية ومدينة ومخيم. الفلاح الفلسطيني الذي يرتدي ثوبه التقليدي المطرز ويسير في الصباح الباكر متوجهاً إلى أرضه ويقف اليوم شامخاً كالطود العظيم يزرع ويحصد ويحمي أشجار الزيتون المعمرة التي يعود بعضها إلى آلاف السنين في جبال نابلس أو تلال الخليل الشامخة أو سهول جنين الفسيحة هو الامتداد الطبيعي والنسل المباشر والوارث الشرعي والوحيد لأولئك الكنعانيين الأوائل الذين ارتبطوا بهذا التراب وصنعوا هوية المكان بجهدهم وعرقهم ودماء آبائهم وأجدادهم. الملامح السحنية والوجوه السمرة التي لوحتها شمس فلسطين والعادات والتقاليد الاجتماعية في الأفراح والأتراح وأساليب الزراعة الموسمية وحصاد المحاصيل وهندسة البيوت القروية القديمة المبنية من الحجر الطبيعي وحتى بعض الكلمات والمصطلحات والمفردات اللغوية المستخدمة في اللهجة الفلسطينية الدارجة

اليوم والتي يظن البعض أنها عامية عادية تعود في أصولها وجذورها الاشتقاقية إلى اللغة الكنعانية السامية القديمة مما يثبت بالدليل العلمي والقاطعي والوجداني الذي لا يقبل الشك أو المراء أن الشعب الفلسطيني لم يأتِ من مكان آخر وراء البحار ولم ينزل من السماء كجماعة طارئة بل هو نبتة أصيلة ضاربة الجذور خرجت من هذه الأرض المباركة ونمت فيها وتفرعت غصونها وتغذت من مائها وعاشت تحت سمائها عبر كل القرون والمتغيرات.

لقد مرت على أرض فلسطين عبر تاريخها الطويل أمواج عاتية وجيوش جرارة ودول وإمبراطوريات كبرى تطلعت دوماً لنهب خيراتها والسيطرة على موقعها الاستراتيجي الفريد الذي يربط بين قارات العالم القديم ويتحكم في طرق التجارة الدولية فجاءها الفراعنة من الجنوب والأشوريون والبانليون من الشرق ثم الفرس والإغريق والرومان والبيزنطيون والفرنجة وغيرهم الكثير من الغزاة والطارئين الذين ظنوا في لحظة من غرور القوة الساقطة أنهم امتلكوا الأرض إلى الأبد وحولوا القدس ومدن فلسطين إلى حواضر تابعة لإمبراطورياتهم البعيدة. ورغم كل هذا الصخب العسكري والسياسي الهائل ورغم تغير الحكام وتبدل الرايات والشعارات وتغير القوانين الجائرة ظل القانون التاريخي الأسمى والثابت والدائم في فلسطين هو أن الغزاة مهما طال مكثهم ومهما عظمت قوتهم وجبروتهم يرحلون دائماً

وتتلاشى جيوشهم وتتحطم أحلامهم وتصبح قصورهم وقلاعهم مجرد آثار ميتة وسطور باهتة في كتب التاريخ بينما يبقى أهل الأرض الأصليون متمسكين ببيوتهم ملتصقين بمزارعهم وحاميين لهويتها العربية الأصيلة التي تضرب بجذورها في أعماق الأرض والزمن ولا ترضى بغير هذه الأرض بديلاً مهما كانت التضحيات ومهما غلت الأثمان.

وبمرور العصور والأزمنة وعندما أشرقت شمس الرسالة الإسلامية الخاتمة من مكة المكرمة وتلقاها العالم بالقبول والترحاب جاء الفتح الإسلامي العظيم ليمثل نقطة التحول الكبرى والأجمل في تاريخ هذه الأرض المباركة حيث لم يجد الفتح الإسلامي أمامه شعباً غريباً بل وجد أهل فلسطين الأصليين الذين هم عرب بالدم والانتماء واللغة والثقافة فاستقبلوه بالترحاب ودخلوا في الدين الجديد طواعية ورغبة وحباً في عدالة الإسلام وتسامحه فامتزج الحق التاريخي الكنعاني القديم بالحق العقدي الإسلامي الجديد وتعمقت صلة هؤلاء السكان بأرضهم لتصبح فلسطين أرضاً عربية إسلامية بامتياز بوجهها وقلبها ولسانها وهوية أبنائها المرابطين الذين لم يغادروها ولم يتخلوا عنها عبر كل الأزمان وبقوا فيها حراساً أوفياء للأمانة التاريخية والشرعية يدافعون عن مقدساتها ويحمون ترابها وينتظرون فجر الحرية القادم الذي لا بد أن يشرق مهما طال ليل الظلم والعدوان.

إن الحديث عن الكنعانيين كأجداد للفلسطينيين ليس مجرد تفاخر بالماضي بل هو دفعة قوية لفهم طبيعة الصراع الحالي وفهم سر هذا الصمود الأسطوري الذي يظهره شعب فلسطين في وجه واحدة من أبشع آلات الاحتلال في العصر الحديث. هذا الصمود ليس وليد اللحظة بل هو جينات حضارية متوارثة من جيل إلى جيل الفلاح الذي يرى جرافة الاحتلال تقترب من شجرة زيتونه فيتشبث بجذعها ويفضل الموت على أن يراها تُقتلع إنما يستدعي في تلك اللحظة روح جده الكنعاني الأول الذي زرع هذه الشجرة قبل آلاف السنين وسقاها من عرقه وصانها من كيد الطامعين إنها علاقة حب أبدية بين الإنسان والأرض لا يمكن لأي قوة عسكرية أو تكنولوجية أن تفصم عراها أو تنهي وجودها لأن القوة المادية تذهب وتزول أما الحق التاريخي والروحي فيبقى نابضاً في القلوب وعامراً في العقول وصامداً على أرض الواقع.

وعندما نتأمل الخريطة الجغرافية لفلسطين الكنعانية نجد أن التوزيع السكاني القديم يتطابق بشكل مذهل مع التوزيع السكاني الحالي مما يظهر ثبات العربية فالكنعانيون الذين استوطنوا السواحل وأسسوا الموانئ هم أنفسهم الذين جعلوا من يافا وغزة وعكا مراكز إشعاع حضاري والكنعانيون الذين صعدوا إلى الجبال وحفروا الصخر لزراعة المدرجات الجبلية هم أنفسهم أجداد أهل الخليل ونابلس ورام الله والقدس والذين عاشوا في الأغوار وحول نهر الأردن هم أجداد الغوارنة الذين يزرعون

الأرض اليوم ويفيضون بالخير على كل فلسطين هذا الثبات الديموغرافي والجغرافي يعتبر من أقوى الأدلة في علم التاريخ والأنثروبولوجيا على أن هذا الشعب هو صاحب الأرض الشرعي والحقيقي الذي لم يترك مكانه يوماً ولم يستورد هويته من الخارج بل صنعها بيديه وصاغها بعرق جبينه وكفاحه المستمر عبر العصور المتلاحقة.

إن المتاحف العالمية والوطنية اليوم مليئة بالقطع الأثرية المكتشفة في تراب فلسطين من أوانٍ فخارية وأدوات زراعية وحلي برونزية ورسائل ديبلوماسية قديمة مثل رسائل تل العمارنة التي تبادلها حكام المدن الكنعانية في فلسطين مع فراعنة مصر وكل هذه الآثار المادية الملموسة لا تحتوي على نقش واحد أو إشارة واحدة تؤيد المزاعم الصهيونية الحديثة بل كلها تشهد باللغة الكنعانية الواضحة وب الرسوم والنقوش على أن الأرض كانت تنبض بالحياة العربية والكنعانية وأن هؤلاء السكان كانوا على درجة عالية من التنظيم السياسي والاجتماعي والاقتصادي وكانوا يديرون شؤونهم بكل حكمة واقتدار ويمدون جسور التجارة والثقافة مع كل جيرانهم في الشام ومصر وبلاد الرافدين واليونان مما يجعل من محاولات إنكار وجودهم أو القفز فوق تاريخهم مجرد عبث أكاديمي وتزوير سياسي مفضوح لا يصمد أمام أول اختبار علمي حقيقي.

ومن هنا يظهر لنا بكل وضوح أن المحاولات المستمرة للاحتلال في هدم البيوت القديمة وتغيير أسماء الشوارع والمدن والقرى وتحويل الأسماء العربية الكنعانية الأصيلة إلى أسماء عبرية مخترعة وحديثة ليست إلا محاولة يائسة ومكشوفة لسرقة التاريخ بعد سرقة الجغرافيا ولكن هذه المحاولات تبوء دائماً بالفشل لأن الحجر الفلسطيني ينطق بعربيته ولأن أشجار الزيتون الشامخة ترفض العبرنة ولأن الرواية الشفوية المتوارثة في صدور الأمهات والآباء أقوى بكثير من كل المخططات والميزانيات التي تُنفق لتزييف الوعي فالطفل الفلسطيني في الشتات أو في داخل الأرض المحتلة يعلم تماماً أن حيفا هي حيفا وأن القدس هي يبوس وأن غزة هي غزة ويعلم أن جذوره تمتد عميقاً في هذا التراب إلى ما قبل ظهور هذه الكيانات الطارئة مما يجعل القضية حية ومتجددة في نفوس الأجيال متعاقبة جيل يسلم الراية لجيل وكلهم ثقة بيقين تاريخي وعقدي لا يتطرق إليه الشك بأنهم أصحاب الأرض الحقيقيون والوارثون الشرعيون لكل حبة رمل وفوق كل شبر من هذه الأرض المباركة والمقدسة.

وينبغي للكاتب والباحث والمطلع أن يدرك أن الحق الإسلامي في فلسطين لا يلغي الحق التاريخي الكنعاني بل يتكامل معه ويثبته لأن الإسلام عندما جاء لم يأتِ ليمحو تاريخ الشعوب العربية التي كانت تستوطن هذه البلاد بل جاء ليرفع من شأنها

ويمنحها الشرعية الإلهية والعقدية العظمى ويجعل من حماية هذه الأرض والدفاع عنها جزءاً من عقيدة وثقافة كل مسلم
فالكنعانيون الأوائل هم الآباء البيولوجيون والتاريخيون والمسلمون هم الورثة الروحيون والحضاريون الذين حملوا الأمانة وساروا بها في موكب الحضارة الإنسانية مشكلين نسيجاً واحداً فريداً لا يمكن تمزيقه أو فصل مكوناته عن بعضها البعض وهذا هو السر الذي يجعل قضية فلسطين قضية عصية على النسيان وعصية على التصفية لأنها تمتلك من مقومات البقاء والتجذر التاريخي والعقدي ما لا تملكه أي قضية أخرى في العالم المعاصر.

وفي ختام هذا الفصل الطويل والمستفيض الذي تتبعنا فيه جذور الأرض وأصالة أصحابها نصل إلى قناعة تاريخية وعلمية راسخة لا تتزعزع تفيد بأن فلسطين كانت وما زالت وستبقى عربية كنعانية إسلامية الهوية والروح وأن كل محاولات الاستيطان والتشريد والتغيير الديموغرافي القسري التي جرت في القرن الماضي والحالي ليست سوى حلقة طارئة وعابرة في سلسلة التاريخ الطويل لهذه الأرض وكما رحل الغزاة السابقون من رومان وصليبيين وغيرهم وتركوا الأرض لأصحابها الحقيقيين فإن التاريخ سيعيد نفسه حتماً وسيرحل الطارئون المعاصرون وتبقى فلسطين لأهلها الصامدين المرابطين الذين نبتوا من ترابها الكنعاني الأول وتغذوا من بركتها الإسلامية

الخالدة وسيبقون فيها حراساً أوفياء للأمانة والعهد حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

الفصل الثاني

إن تتبع خطى الأنبياء والرسل عليهم السلام فوق أرض فلسطين المباركة يأخذنا إلى آفاق رحبة وممتدة من التاريخ الإيماني والعقدي الذي يمثل الركيزة الأساسية والمحور الجوهري لمفهوم الإرث الحقيقي والأحقية المطلقة للمسلمين في هذه الأرض المقدسة. هذه الأرض لم تكن يوماً مجرد بقعة جغرافية عادية تتنازع عليها القبائل والشعوب من أجل ثرواتها وموقعها بل كانت منذ فجر الخليقة مسرحاً للوحي والرسالات السماوية وموطناً ومهاجراً ومجالاً حيوياً لدعوات التوحيد التي حمل لواءها صفوة خلق الله من الأنبياء والمرسلين. إن هذا الفصل الطويل والمستفيض يتناول بالبحث والتحليل والسرد الإيماني المنساب تفاصيل الوجود النبوي في فلسطين وكيف أن الإسلام المعاصر برجاله وعقيدته وقرآنه هو الوارث الشرعي والوحيد لكل هذا الإرث النبوي العظيم متجاوزاً ومفنداً الادعاءات العرقية والقومية الضيقة التي تحاول حصر هذا الإرث في سلالة محددة أو جماعة بشرية حادت عن نهج الأنبياء وكفرت برسالاتهم.

حين نفتح صفحات التاريخ الإيماني فإن أول من يستقبلنا بإشراقة دعوته وتضحياته هو إمام الحنفاء وأبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام الذي غادر بلاده الأولى في العراق مهاجراً ب دينه وعقيدته وتوحيده قاصداً الأرض المباركة التي أشار إليها القرآن الكريم في آيات كثيرة تفوق الحصر والتأويل. دخل إبراهيم عليه

السلام فلسطين حاملاً لواء التوحيد الخالص لله رب العالمين ولم يأتِ غازياً أو طامعاً في ملك أو سلطان بل جاء مستسلماً منقاداً لأمر ربه فسكن في ربوعها وتنقل بين مدنها مثل شكيم التي هي نابلس اليوم والخليل التي ارتبطت باسمه وصارت تُعرف بمدينة خليل الرحمن. في الخليل ضرب إبراهيم عليه السلام خيامه وبنى بيته وجعل من هذا المكان مركزاً لنشر دعوة التوحيد وإعانة الضعفاء وإقراء الضيوف فصارت الأرض تفيض ببركة وجوده ودعوته الإيمانية.

إن العهد الإلهي الذي تلقاه إبراهيم عليه السلام في فلسطين وهو العهد الذي يتخذه البعض اليوم حجة ومبرراً للاحتلال والاستيطان يتجلى في المنظور الإسلامي والقرآني الصافي كعهد إيماني مشروط بالتقوى والعمل الصالح والالتزام بمنهج التوحيد الخالص وليس عهداً عرقياً أو وراثياً بيولوجياً يُمنح لجماعة من البشر لمجرد نسبهم الطيني. القرآن الكريم يحسم هذه المسألة حسماً قاطعاً لا يدع مجالاً للشك أو التزييف حين يقول في محكم التنزيل قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين. هذا الرد الإلهي الحاسم والواضح يرفع الشرعية والعهد عن كل من ظلم وكفر وحاد عن طريق التوحيد ويلغي تماماً أي أحقية عرقية مبنية على النسب إذا انفصلت عن الإيمان والعمل الصالح. ومن هنا فإن المسلمين الموحدين الذين يؤمنون بإبراهيم عليه السلام وبجميع الأنبياء من

بعده دون تفريق هم الورثة الحقيقيون لهذا العهد الإلهي لأنهم ساروا على خطاه وحملوا رسالته في توحيد رب العالمين وجعلوا من فلسطين مركزاً لهذا التوحيد الخالد.

في ربوع فلسطين المباركة ولد ونشأ وعاش إسحاق عليه السلام مكملاً مسيرة أبيه في نشر التوحيد وإعلاء كلمة الله وصيانة العهد الإيماني من أي انحراف أو شرك وتلاه ابنه يعقوب عليه السلام الذي يُعرف في التاريخ والقرآن باسم إسرائيل. يعقوب عليه السلام قضى ردحاً من حياته في فلسطين وعاش في كنفها يربي أبناءه على الإيمان الخالص بالله الواحد الأحد ولم تكن دعوته أو حياته تحمل أي طابع قومي أو استعلائي بل كانت دعوة ربانية خالصة تشع بالهدى والنور والرحمة لجميع الناس. والقصة الشهيرة لأبناء يعقوب ويوسف عليه السلام بدأت وتطورت فصولها الأولى فوق هذا التراب المبارك من جب يوسف إلى رحلة البحث واللجوء والمغادرة إلى مصر بسبب القحط والجفاف مما يظهر التداخل والترابط العجيب بين الجغرافيا الفلسطينية وجغرافيا الرسالات السماوية التي جعلت من فلسطين دائماً منطلقاً ومآلاً للأحداث الإيمانية الكبرى.

تمر السنون والقرون وتتوالى الأحداث ويعود بنو إسرائيل مع موسى عليه السلام ثم مع يوشع بن نون الذي قادهم لدخول الأرض المباركة بعد فترة التيه في سيناء وهنا ينبغي لنا كباحثين عن الحقيقة أن ننظر بوعي وعمق إلى طبيعة هذا الدخول. إن

دخول بني إسرائيل إلى فلسطين في ذلك الوقت لم يكن دخولاً قومياً للاستيطان وبناء دولة عنصرية بل كان أمراً إلهياً لدخول الأرض المقدسة لإقامة شرع الله وتوحيده والدفاع عن دينه في وجه الممالك الوثنية التي عاثت في الأرض فساداً وظل هذا الدخول والوجود مشروطاً بالطاعة والانقياد لأوامر الله والأنبياء. وعندما تنكب بنو إسرائيل الطريق وعصوا أنبياءهم وقتلوهم بغير حق وبدلوا كلام الله وحرفوا شرائعه سُلبت منهم هذه الأحقية ورفعت عنهم بركة الأرض لأنهم نقضوا العهد الإلهي وتحولوا من حملة لرسالة التوحيد إلى جماعات تبحث عن المصالح المادية والاستعلاء القومي والعرقي.

وتصل القصة الإيمانية في فلسطين إلى ذروة المجد والتمكين مع داود وسليمان عليهما السلام اللذين أنشآ حكماً ومملكة عظيمة في ربوع فلسطين والقدس الشريف. في المنظور الإسلامي الراسخ والواضح لم يكن داود وسليمان ملكين علمانيين أو قادة قوميين أسسوا دولة لليهود بل كانوا أنبياء ورسلاً لله وملوكاً صالحين أقاموا حكماً ربانياً يقوم على العدل والحق والتسبيح والتوحيد الخالص. داود عليه السلام كان يقضي أوقاته في محرابه يسبح الله وتردد معه الجبال والطير الإنشاد والذكر وسليمان عليه السلام سخر الله له الريح والجن وعلمه منطق الطير ليبني صرحاً عظيماً ومسجداً مقدساً يُعبد فيه الله وحده لا شريك له. هذا الصرح والمسجد الذي بناه سليمان عليه السلام في القدس

وهو ما يُطلق عليه البعض اليوم اسم الهيكل لم يكن معبداً وثنياً أو عرقياً بل كان مسجداً من مساجد الله وصرحاً للتوحيد يرفع فيه اسم الله الخالق البارئ المصور.

ولأن الإسلام هو الدين المهيمن والخاتم الذي جاء ليصدق ما بين يديه من الكتاب ويشهد عليه فإن المسلمين هم أصحاب الحق في هذا المسجد وفي هذا الإرث لأنهم الامتداد الطبيعي لدعوة داود وسليمان ولأنهم الموحدون الحقيقيون الذين يقدسون هذين النبيين العظيمين ويعتبرونهما من أركان التاريخ الإسلامي المشرق بينما يصفهما الفكر اليهودي المحرف في كتبهم بأنهما مجرد ملوك ارتكبوا المعاصي والآثام ونكصوا عن الجادة مما يوضح الفرق الشاسع بين نظرة الإسلام التقديسية التوحيدية للأنبياء ونظرة الآخرين التي أسقطت عنهم صفة العصمة والنبوة وجعلتهم مجرد قادة سياسيين وعسكريين في تاريخ قومي دنيوي.

بعد عصر التمكين والمملكة الصالحة توالت القرون وشهدت فلسطين انحرافات كثيرة من الذين ادعوا صلتهم بالأنبياء فبعث الله فيهم أنبياء كثر لردهم إلى الصراط المستقيم وتذكيرهم بالعهد المأخوذ عليهم. نجد في هذه الحقبة نبي الله زكريا عليه السلام الذي كان يقوم على خدمة المحراب في المسجد المقدس ويقضي عمره في الدعوة والعبادة والتبتيل والتعليم ونجد ابنه يحيى عليه السلام الذي أخذ الكتاب بقوة وعاش زاهداً ورعاً يملأ الأرض

ديناً وتقوى ويواجه الملوك الظلمة بكلمة الحق حتى دفع حياته ثمناً لإيمانه وثباته على مبادئ التورائ الحقيقية غير المحرفة فكان دمه الطاهر الذي سُفك على أرض فلسطين شاهداً على مدى التضحية التي قدمها هؤلاء الصفوة في سبيل الحفاظ على قدسية الأرض وطهارة العقيدة من دنس الطامعين والمحرفين.

وتصل المعجزة الإلهية والدعوة الربانية في فلسطين إلى قمة التجلي والنور مع ولادة عيسى ابن مريم عليه السلام في بيت لحم هذه الولادة المعجزة التي غيرت مجرى التاريخ الإنساني كله وجاءت من قلب الأرض المباركة لتعلن فجراً جديداً من المحبة والسلام والتوحيد الخالص الخالي من القيود والأغلال التي فرضها الأحبار والرهبان المحرفون. عيسى عليه السلام نشأ في ربوع فلسطين وتنقل بين قراها ومدنها وجبالها من الناصرة إلى القدس وبحيرة طبريا حاملاً الإنجيل كتاباً وهدى ونوراً ومحيياً للموتى ومبرئاً للأكمه والأبرص بإذن الله داعياً بني إسرائيل إلى العودة إلى روح الدين وترك الشكليات القاتلة والاستعلاء العرقي المذموم. واجه عيسى عليه السلام مؤامرات ضخمة ومحاولات مستمرة لقتله والتخلص من دعوته من قِبل الذين رأوا في دعوته الإيمانية خطراً على مصالحهم ونفوذهم وحكماً بنهاية أحقيتهم المزعومة حتى رفعه الله إليه وصانه من كيدهم وظلت فلسطين شاهدة على معجزاته ودعوته الطاهرة التي تفيض بالنور والبركة والتوحيد.

إن هذه السلسلة الذهبية والمترابطة من الأنبياء والرسل الذين عاشوا وماتوا وبنوا وضحوا على أرض فلسطين تشكل في مجموعها وثيقة العهد الإيمانية والشرعية التي يتوارثها المسلمون اليوم بكل فخر واعتزاز ويقين راسخ. الإسلام في جوهره وعقيدته ليس ديناً جديداً منقطع الجذور بل هو الدين الخاتم والشامل الذي جاء ليجمع شتات الرسالات السماوية كلها ويهيمن عليها ويعلن أن الدين عند الله الإسلام منذ آدم وإلى محمد صلى الله عليه وسلم. ومن هذا المنطلق فإن المسلم المعاصر حين يصلي ويتوجه بقلبه نحو القدس أو يتذكر تاريخها فإنه لا يتذكر تاريخاً غريباً عنه بل يتذكر تاريخ أنبيائه ورسله الذين يؤمن بهم فرضاً عيناً ولا يصح إيمانه أو يكتمل إلا بتوقيرهم وتقديسهم والإيمان برسالاتهم الأولى ولهذا فإن المسلمين هم الأوصياء الشرعيون والوارثون الحقيقيون لكل حجر ومحراب ومسجد بناه أو صلى فيه نبي من الأنبياء في فلسطين.

تتجلى هذه الوراثة الإيمانية والحضارية الشاملة وتتوج في أعظم حدث روحي وتاريخي ربط بين الأرض والسماء وبين المسجد الحرام والمسجد الأقصى وهو رحلة الإسراء والمعراج لرسول الله محمد صلى الله عليه وسلم. في تلك الليلة المباركة لم تكن القدس وفلسطين مجرد محطة عابرة في الرحلة بل كانت الهدف والغاية والملتقى الإلهي العظيم حيث أُسري بالنبي الأكرم من

مكة المكرمة إلى بيت المقدس ليلتقي هناك بجميع الأنبياء والرسل الذين جمعهم الله له في صعيد واحد داخل المسجد الأقصى المبارك فتقدم النبي محمد صلى الله عليه وسلم وأمهم جميعاً في الصلاة. إن هذه الصلاة الإعجازية والتاريخية خلف النبي الخاتم لم تكن مجرد طقس تعبدي عابر بل كانت إعلاناً إلهياً كونياً صريحاً وواضحاً عن انتقال إمامة الأرض ووراثة المقدسات وعهود الأنبياء ورسالاتهم إلى الأمة الإسلامية الخاتمة ورسولها الأمين وصارت فلسطين منذ تلك اللحظة جزءاً لا يتجزأ من العقيدة الإسلامية ودار الإسلام التي يجب حمايتها وصونها والقتال من أجلها.

تلك الصلاة النبوية الجامعة في جوف المسجد الأقصى كانت بمثابة توقيع وتسليم للمفاتيح الروحية والتاريخية لهذه الأرض المباركة من كل الأنبياء السابقين إلى النبي الخاتم وإلى أمته من بعده إلى قيام الساعة فكأن إبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وعيسى وداود وسليمان وزكريا ويحيى قد سلموا الأمانة والعهد للرسول محمد وللمسلمين الموحدين قائلين لهم نحن قد أدينا الرسالة وبلغنا الأمانة وهذه الأرض المباركة هي عهدتكم ومسؤوليتكم من الآن فصاعداً فاحموها بعقيدتكم وصونوها بدمائكم وحافظوا على طهارتها وتوحيدها من دنس الشرك والتحريف والظلم والاستعلاء العرقي والطغيان المادي.

ومن هنا يظهر لنا بطلان وزيف وتهافت المحاولات الحديثة للاحتلال التي تحاول استخدام قصص الأنبياء والتاريخ القديم المذكور في كتبهم المحرفة لتبرير المجازر والتهجير والاستيطان واغتصاب الأرض وتشريد أهلها الأصليين. إن الأنبياء برآء من كل هذه الممارسات الوحشية والعنصرية لأن دعوة الأنبياء كانت دعوة عدل ورحمة وتوحيد وإيمان ولم تكن يوماً دعوة لتطهير عرقي أو سرقة بيوت الفلاحين وإبادة الأطفال والنساء. إن الذي يسير على نهج الأنبياء هو الذي يحمي الضعيف ويقيم العدل وينشر التوحيد ويعمر الأرض بالخير والصلاح وهذا هو بالضبط ما فعله المسلمون عبر تاريخهم الطويل في فلسطين وحين دخلوا القدس فاتحين مع عمر بن الخطاب وصلاح الدين الأيوبي حيث أمنوا الجميع وحفظوا المقدسات ولم يريقوا قطرة دم واحدة تعبيراً عن التزامهم الدقيق والعميق بروح الإرث النبوي الخالد والرحمة الربانية الشاملة.

إن هذا الإرث النبوي الحقيقي والراسخ يعيش اليوم في وجدان وشخصية وثقافة وعادات الشعب الفلسطيني المرابط فوق أرضه فأسماء الأنبياء وقصصهم ومعجزاتهم ومقاماتهم منتشرة في كل شبر من فلسطين من شمالها إلى جنوبها. تجد مقبرة ومقام الأنبياء في الخليل وتجد جبل قفزة في الناصرة وتجد المحاريب القديمة والآبار والينابيع التي تحمل أسماء الأنبياء في القرى والبلدات والمزارع مما يثبت بالدليل القاطع والوجدان الحي أن

هذا الشعب هو الحارس الأمين والامتداد الطبيعي والروحي لهذا التاريخ الإيماني العظيم ولم ينفصل عنه يوماً واحداً بل يعيشه ويتنفسه في كل لحظة ويستمد منه قوته وصموده الأسطوري في وجه الرياح العاتية والمؤامرات الدولية المستمرة.

إن الوعي بهذا الإرث النبوي يمثل السلاح الأقوى في معركة الوعي والثقافة التي تصاحب الصراع على أرض فلسطين فالعدو يريد إقناع العالم بأن صراعه هو صراع قومي وتاريخي قديم يعود له فيه الحق بناء على نصوص محرفة وقراءات انتقائية للتاريخ بينما يثبت الواقع العلمي والعقدي والإسلامي أن الحق والعهد قد انتقلا بالكامل وبأمر إلهي إلى الأمة الإسلامية الموحدة التي تضم في صفوفها المؤمنين الحقيقيين بجميع الأنبياء والرسل والذين يجعلون من الصلاة والدعاء والجهاد في سبيل القدس واجباً دينياً وعقدياً لا يمكن التنازل عنه أو المساومة عليه مهما طال الزمن وتغيرت موازين القوى المادية في العالم.

وفي نهاية هذا السرد التفصيلي والإيماني المستفيض حول الوجود النبوي في فلسطين نصل إلى حقيقة كبرى وناصعة كالشمس في رابعة النهار تفيد بأن فلسطين هي أرض الأنبياء ومسرى الأمين وأن حق المسلمين بها ليس حقاً سياسياً طارئاً أو جغرافياً عابراً بل هو حق عقدي وإيماني وتاريخي وشرعي معمد بدعوات الرسل وتضحيات الأنبياء وصلواتهم وصمودهم الخالد وكما كانت هذه الأرض مهداً للتوحيد والنور في الماضي

فإنها ستبقى كذلك في الحاضر والمستقبل وسيحميها أبناؤها المرابطون الموحدون مستندين إلى هذا الإرث العظيم والوعد الإلهي الصادق الذي لا يتخلف بأن العاقبة للمتقين وأن الأرض يرثها عباد الله الصالحون الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويؤمنون بالرسل والأنبياء كلهم دون تفريق أو تبديل.

الفصل الثالث

إن تتبع مسار الفجر الإسلامي في أرض فلسطين المباركة يمثل العبور من مرحلة الإرث النبوي القديم إلى مرحلة التمكين السياسي والديني الفعلي للأمة الإسلامية فوق هذا التراب المقدس. هذا الفصل يتناول بالبحث والتحليل والسرد المسترسل أعظم حدثين شكلا بداية التاريخ الإسلامي الفعلي لفلسطين وهما رحلة الإسراء والمعراج الروحية الإعجازية التي ربطت القدس بالسماء وبعقيدة كل مسلم ثم الفتح العمري المجيد الذي نقل فلسطين من ظلمات الاضطهاد والاحتلال الروماني إلى أنوار العدل والحرية والسيادة الإسلامية ليكون هذا الفصل وثيقة تاريخية وإيمانية شاملة تشرح كيف أصبحت فلسطين أرضاً إسلامية بالشرعية الروحية والقانونية والسياسية.

بدأت الحكاية الإسلامية لفلسطين قبل أن تطأها أقدام الفاتحين بقرون وذلك في ليلة من أعظم ليالي الأرض حين كان النبي محمد صلى الله عليه وسلم يمر بأصعب فترات دعوته في مكة المكرمة بعد عام الحزن وفقد النصير فجاءه جبريل عليه السلام بمركب البراق ليأخذه في رحلة برية وروحية خارقة للزمان والمكان. انطلق البراق بالنبي الكريم من المسجد الحرام في مكة متوجهاً صوب الشمال نحو أرض الشام وتحديداً إلى بيت المقدس والمسجد الأقصى المبارك ولم تكن هذه الوجهة اختياراً عابراً بل كانت تدبيراً إلهياً مقصوداً لإعلان الربط العقدي والمقدس بين المسجدين ولتثبيت مكانة فلسطين في قلب العقيدة

الإسلامية الناشئة فكانت رحلة الإسراء هي الإعلان الروحي الأول عن دخول فلسطين في حوزة الإسلام الروحية.

وصل النبي صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس ونزل في ساحة المسجد الأقصى المبارك وربط دابته البراق بالحلقة التي كان يربط بها الأنبياء دنيوياً والمسماة اليوم بحائط البراق ودخل إلى رحاب المسجد حيث وجد في انتظاره حدثاً كونياً مهيباً لم تشهد الأرض له مثيلاً من قبل ولا من بعد فقد جمع الله له جميع الأنبياء والرسل من لدن آدم إلى عيسى عليهم السلام في صعيد واحد وفي قلب المسجد الأقصى ليتلقوا خاتم الأنبياء والمرسلين ويعلنوا له الولاء والانقياد. وتقدم النبي محمد صلى الله عليه وسلم بأمر من جبريل ليؤم الأنبياء جميعاً في الصلاة في ذلك المحراب المقدس وكانت هذه الصلاة صلاة إقرار وتسليم بالولاية والإمامة الروحية للعالم كله حيث سلم الأنبياء مفاتيح القيادة الدينية والعهود الإلهية للأمة الإسلامية ورسولها الخاتم وصارت فلسطين منذ تلك الركعات عهدة إسلامية معمدة بإمامة محمد صلى الله عليه وسلم ومباركة بصلوات الأنبياء خلفه.

من فوق صخرة بيت المقدس المشرفة والواقعة في قلب المسجد الأقصى بدأت رحلة المعراج السماوية حيث عرج بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى السماوات العلى مخترقاً طبقات الكون ليرى من آيات ربه الكبرى وفرضت هناك الصلاة الخمس التي هي ركن الإسلام العظيم ليعود النبي في نفس الليلة إلى مكة حاملاً

معه فريضة الصلاة التي كان المسلمون يتوجهون فيها في بدايتها نحو القبلة الأولى وهي بيت المقدس. لقد ظل المسلمون يصلون نحو القدس لستة عشر أو سبعة عشر شهراً مما جعل هذه المدينة وهذا المسجد الأقصى جزءاً لا يتجزأ من صلاتهم اليومية وعبادتهم الروحية وثبت في نفوس الصحابة الأوائل أن التوجه نحو القدس هو توجه نحو منبع البركة والنور النبوي القديم ومسرى نبيهم الأكرم مما غرس في قلوبهم شوقاً عارماً لفتح هذه الأرض وتطهيرها من دنس الوثنية والاضطهاد الروماني.

وتمر السنوات وتتأسس الدولة الإسلامية في المدينة المنورة وتبدأ مواجهة الإمبراطورية البيزنطية الرومانية التي كانت تطبق بخناقها على بلاد الشام وفلسطين وتضطهد سكانها المسيحيين واليهود الأصليين وتمنعهم من ممارسة معتقداتهم بحرية وتسومهم سوء العذاب بل وتقوم بتحويل منطقة المسجد الأقصى والصخرة المشرفة إلى مكب للنفايات والقمامة نكاية باليهود واستخفافاً بالمقدسات. أرسل النبي صلى الله عليه وسلم البعوث والجيوش نحو الشمال مثل معركة مؤتة وغزوة تبوك وجيش أسامة بن زيد ليمهد الطريق نحو تحرير الشام وفلسطين وسار على نهجه أبو بكر الصديق رضي الله عنه الذي سير الجيوش الأربعة لفتح الشام واضعاً فلسطين والقدس كهدف أسمى وأكبر للفتح الإسلامي المبارك.

وفي عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وصلت الفتوحات الإسلامية إلى ذروة المجد والتمكين وتهاوت الحصون الرومانية الواحدة تلو الأخرى في معركة اليرموك والبلدات الشامية حتى حاصر المسلمون مدينة القدس الشريف حصاراً محكماً بقيادة الصحابي الجليل أبي عبيدة عامر بن الجراح وعمرو بن العاص رضي الله عنهما. كان الروم في القدس بقيادة بطريرك المدينة صفرونيوس يعلمون تماماً أن جيوش المسلمين لا قِبل لهم بها وأنهم يحملون عقيدة لا تعرف الهزيمة ولكن البطريرك طلب شرطاً فريداً ومؤثراً لسلام المدينة وتسليم مفاتيحها دون إراقة دماء وهو أن يأتي خليفة المسلمين عمر بن الخطاب بنفسه من المدينة المنورة لتسلم مفاتيح القدس لأنه قرأ في كتبهم ومأثوراتهم الأوصاف الدقيقة للفاتح الحقيقي الذي سيفتح المدينة دون قتال وهي الأوصاف التي انطبقت تماماً على شخصية وعمر وزهده وعدله.

استجاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لطلب البطريرك وخرج من المدينة المنورة في رحلة تاريخية جسدت معاني الزهد والعدالة والقوة الإسلامية الصافية فلم يخرج بموكب ملكي حاشد ولا بجيوش جرارة تستعرض القوة بل خرج ومعه غلامه ودابة واحدة يتناوب الركوب عليها بالعدل والمساواة فإذا كانت نوبة الغلام ركب الغلام ومش الخليفة وإذا كانت نوبة الخليفة ركب عمر ومش الغلام حتى وصلا إلى مشارف الشام وفلسطين

وكانت نوبة الغلام في الركوب فركب الغلام ومشى الخليفة عمر بن الخطاب على قدميه وخاض في المخاضة والماء ممسكاً بزمام الدابة وثيابه مرقعة في مشهد أبهر قادة الروم وبطريرك المدينة وصعق عقولهم من هذا الزهد والعدل الذي لم يروه في ملوك الأرض قاطبة وعلموا أن هذه الأمة إنما تنصر بالحق والعدل الإلهي وليس بزينة الدنيا وزخرفها.

دخل عمر بن الخطاب رضي الله عنه القدس فاتحاً مستبشراً مكبراً ولم يدخلها دخول الغزاة المستكبرين الذين يدمرون البلاد ويبيدون العباد كما فعل الروم والصليبيون من قبل ومن بعد بل دخلها متواضعاً لله شاكراً لفضله والتقى بالبطريرك صفرونيوس وجال معه في كنائس المدينة ومعالمها التاريخية وعندما حان وقت الصلاة وهو في كنيسة القيامة دعاه البطريرك للصلاة داخل الكنيسة لكن عمر بعبقريته السياسية والفقهية وفراسته الإيمانية اعتذر بلطف وخرج ليوجه صلاته خارج الكنيسة على مقربة منها وقال للبطريرك لو صليت داخل الكنيسة لقال المسلمون من بعدي هنا صلى عمر ولهدموا الكنيسة وبنوا مكانه مسجداً فصان عمر بحكمته مقدسات المسيحيين وحمى كنائسهم من أي اعتداء مستقبلي وبني في مكان صلاته مسجد عمر القائم حتى يومنا هذا كشاهد حي على التسامح والعدالة الإسلامية العظمى.

توجه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بعد ذلك مباشرة لتبين موقع المسجد الأقصى المبارك ومسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذهب برفقة كعب الأحبار وبعض الصحابة وبحثوا عن مكان الصخرة والمسجد فوجدوها مغطاة بأكوام هائلة من القمامة والتراب التي كان الروم يلقونها هناك نكاية وتوهيناً للمكان فجثا عمر بن الخطاب على ركبتيه وبدأ يحثو التراب والأوساخ بعباءته وبيديه الكريمتين وتبعه الصحابة والمسلمون فوراً وبدأوا في تنظيف الساحة وتطهير مكان المسجد الأقصى والصخرة المشرفة حتى ظهرت المعالم التاريخية للمسجد وأمر عمر ببناء مسجد خشبي مبسط يتسع للمصلين في الجهة القبلية ليكون أول بناء إسلامي رسمي للمسجد الأقصى يعيد للمكان قدسيته وتوحيده وطهارته التي أراد الأنبياء ورسول الله صلى الله عليه وسلم لها أن تكون.

ولكي يثبت عمر بن الخطاب الشرعية القانونية والسياسية والاجتماعية للحكم الإسلامي في فلسطين والقدس كتب لأهل المدينة وثيقة قانونية تاريخية تُعرف في سجلات التاريخ البشري والسياسي باسم العهدة العمرية وهي الوثيقة التي تعد من أرقى وأعظم وثائق حقوق الإنسان وحرية المعتقد في العالم كله. كتب عمر في هذه العهدة أماناً شاملاً لأهل القدس من المسيحيين على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم لا تُسكن كنائسهم ولا تُهدم ولا يُنتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء

من أموالهم ولا يُكرهون على دينهم ولا يُضار أحد منهم وجعل هذا العهد ميثاقاً غليظاً معمداً بعهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء والمؤمنين وصارت هذه العهدة هي القانون الدستوري الذي حمى الوجود المسيحي في القدس لقرون وجعل من المسلمين حماة للعدل والسلام والتعايش الديني في هذه الأرض المباركة.

إن الفتح العمري والعهدة العمرية لم يكونوا مجرد حدث عسكري عابر بل كانوا إعادة صياغة تامة وجذرية لهوية فلسطين والقدس حيث تحولت المدينة من مدينة مضطهدة ومحتلة تابعة لإمبراطوريات بعيدة تحكم بالحديد والنار والضرائب المكوس إلى عاصمة روحية وحضارية تابعة لدار الإسلام تعيش في ظلها كل الطوائف والجماعات في أمن وأمان وسلام وتم الحفاظ على الملكية العربية والإسلامية للأرض وثبت الفلاحون الفلسطينيون في قراهم ومزارعهم ودخل الكثير من سكان البلاد الأصليين في الدين الإسلامي طواعية لما رأوه من نبل الأخلاق والعدالة والرحمة في تعامل المسلمين الفاتحين الذين لم ينهبوا ولم يقتلوا ولم يشردوا أحداً بل جاءوا كناشرين للخير والعدل والتوحيد.

ومنذ ذلك العهد العمري المجيد وحتى يومنا هذا استقرت الشرعية السياسية والتاريخية للمسلمين في فلسطين واعتبر المسلمون في كل بقاع الأرض أن الدفاع عن فلسطين وحماية مقدساتها ورعاية العهدة العمرية هو واجب ديني وأمانة معلقة

في رقابهم لا يمكن التنازل عنها أو التفريط فيها تحت أي ظرف من الظروف. إن رحلة الإسراء والمعراج منحت فلسطين قداستها العقدية والروحية وجعلتها قبلة لقلوب الموحدين والفتح العمري منحها شرعيتها السياسية والقانونية الواقعية وشكل هذان الحدثان معاً البداية الحقيقية والمشرقة للتاريخ الإسلامي في فلسطين وهو التاريخ الذي يمتد عبر العصور ويثبت أن المسلمين هم الحكام الشرعيون والبناة الحقيقيون والحماة الأوفياء لهذه الأرض المباركة والمقدسة التي نبتت بعرق الأنبياء واستقرت بعدل الصحابة والفتح العمري الخالد.

الفصل الرابع

إن تتبع مسار التاريخ الإسلامي في فلسطين لا يمكن أن يكتمل أو يستقيم دون الوقوف طويلاً وبإجلال أمام واحدة من أعظم الملاحم البطولية التي شهدتها البشرية، وهي ملحمة التحرير والاسترداد التي قادها الناصر صلاح الدين الأيوبي رفقة جيل من حماة الأرض الأوفياء. هذا الفصل يتناول بالبحث والتحليل والسرد المسترسل المنساب قصة العصر الذهبي الثاني للسيادة الإسلامية في فلسطين، مبيناً كيف تحولت الأرض من قيد الأسر الصليبي المظلم الذي دام قرابة قرن من الزمان، إلى فضاء الحرية والعدالة والتسامح الإسلامي الشامل، ليكون هذا السرد شهادة تاريخية حية على أن فلسطين لا تزدهر ولا تعرف السلام إلا تحت ظلال الحكم الإسلامي الموحد.

تبدأ فصول هذه الملحمة من لحظة تاريخية شديدة القتامة والأسى، حين ضعفت الدولة الإسلامية وتفرقت كلمتها وتشرذمت ممالكها في الشام ومصر والعراق إلى دويلات صغيرة متناحرة، يقاتل بعضها بعضاً ويسعى كل أمير فيها إلى حماية عرشه الزائل ولو على حساب كرامة الأمة ومقدساتها. في هذا المناخ المأساوي من التمزق والضعف، تطلعت عيون القوى الغربية في أوروبا نحو المشرق الإسلامي، فجهزت الحملات الصليبية الضخمة التي دفعتها أطماع سياسية ومادية مغلفة بشعارات دينية متعصبة، فاجتاحت سواحل الشام وبلدات فلسطين، حتى وصلت الجيوش الصليبية المحتشدة إلى أسوار

القدس الشريف في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، وتحديداً في عام ألف وتسعة وتسعين.

حاصر الصليبيون المدينة المقدسة حصاراً خانقاً، ونظراً لغياب الدعم والوحدة بين المسلمين، سقطت القدس في أيديهم، وشهدت المدينة أفظع مجزرة دموية سجلها التاريخ البشري في العصور الوسطى. لم يرحم الغزاة طفلاً ولا امرأة ولا شيخاً، واقتحموا ساحات المسجد الأقصى المبارك حيث كان يحتمي آلاف المدنيين الأبرياء، وسفحوا دماءهم حتى خاضت خيول الصليبيين في دماء المسلمين إلى الركب، وتحول مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى إسطبل لخيولهم، ورُفع الصليب فوق قبة الصخرة المشرفة، ومُنع الأذان والصلاة في الأقصى لأول مرة منذ الفتح العمري المجيد. لم يتوقف الطغيان عند القدس، بل امتد ليشمل يافا وعكا وحيفا وقرى فلسطين بأسرها، حيث طُرد الفلاحون من أراضيهم، وصودرت مزارعهم، وتحول أهل الأرض الأصليون إلى أقنان وعبيد يخدمون الأسياد الغربيين الطارئين الذين أسسوا ما سمي بمملكة بيت المقدس اللاتينية.

ورغم طول سنوات الأسر التي امتدت لقرابة واحد وتسعين عاماً، ورغم محاولات الطمس المستمرة لهوية الأرض وتحويل مساجدها إلى كنائس ومخازن، فإن جذور الإيمان والوعي لم تمت في نفوس الأمة، بل بدأت رحلة البعث والإحياء من جديد على يد رجال عاهدوا الله على بذل الغالي والنفيس لاسترداد

الأمانة النبوية. بدأت حركة التحرير الشاملة برائد الإحياء الأول عماد الدين زنكي، الذي أدرك بعبقريته أن هزيمة الغزاة لا يمكن أن تتحقق إلا بالقضاء على التشتت الداخلي وبناء وحدة حقيقية تجمع الشام والجزيرة الفراتية، فسار في طريق الجهاد ونجح في تحرير إمارة الرها، واضعاً اللبنة الأولى في جدار النصر القادم، قبل أن يسلم الراية لابنه البار نور الدين محمود زنكي الشهيد.

كان نور الدين زنكي رجل علم وجيش وعبادة، فبنى المدارس الفقهية والمستشفيات، وحارب الفساد، وعمل بكل طاقته على توحيد الجبهة الإسلامية، وأمر بصناعة منبر خشبي فريد غاية في الروعة والإتقان في حلب، ليتم وضعه في المسجد الأقصى عند تحريره، في خطوة عكست مدى اليقين بالله والثقة المطلقة في النصر القادم رغم أن القدس كانت لا تزال تحت الاحتلال. وفي كنف هذه المدرسة النورية العظيمة، نشأ وترعرع القائد الفذ صلاح الدين يوسف بن أيوب، الذي لفت الأنظار بذكائه الحاد وشجاعته النادرة وأخلاقه الرفيعة، فاختاره نور الدين ليكون يده اليمنى في مشروع الوحدة الكبرى، وأرسله برفقة عمه أسد الدين شيركوه إلى مصر لإحباط المؤامرات الصليبية التي كانت تحاول السيطرة على النيل.

نجح صلاح الدين بعبقرية سياسية وعسكرية نادرة في توحيد مصر وربطها بالشام، وبعد وفاة أستاذه نور الدين زنكي، تولى قيادة المشروع الوحدوي الإسلامي، فجمع شتات الممالك من

القاهره إلى دمشق وحلب والموصل تحت راية واحدة وهدف واحد، وهو تطهير أرض فلسطين ومقدساتها من دنس الاحتلال الصليبي. كان صلاح الدين يعلم تماماً أن المواجهة العسكرية مع الصليبيين تتطلب إعداداً شاملاً، ليس فقط على مستوى السلاح والجيوش، بل على مستوى إحياء العقيد وتصفية النفوس ونشر العدل بين الرعية، فتقرب إلى العلماء والفقهاء وجعلهم قادة الرأي والتوجيه في جيشه، وبدأ في تضييق الخناق على الممالك الصليبية من خلال قطع خطوط إمدادهم ومواجهة تحرشاتهم المستمرة بالقوافل الإسلامية وقوافل الحجاج.

وجاءت لحظة الحسم التاريخية في عام ألف ومائة وسبعة وثمانين للميلاد، حين طفح الكيل من ممارسات أمير كرك الصليبي أرناط، الذي كان يهاجم قوافل الحجاج المسلمين ويهدد باقتحام المدينة المنورة ومكة المكرمة استخفافاً بمشاعر المسلمين وعقيدتهم. أعلن صلاح الدين النفير العام واستنفر أجناد المسلمين وحماة الأرض من كل حدب وصوب، فتدفقت الجيوش الإسلامية كالموج الهادر نحو فلسطين، والتقى الجمعان في معركة حطين الخالدة بالقرب من بحيرة طبريا. أدار صلاح الدين المعركة بعبقرية استراتيجية فائقة، حيث سيطر على منابع المياه وحرم منها الجيش الصليبي المثقل بالدروع الحديدية في جو الصيف القائظ، وأمر بإشعال النيران في الأعشاب الجافة

المحيطة بهم، فاجتمع على الغزاة حر الشمس وحر العطش وحر النار وحصار جيش المسلمين.

انقض حماة الأرض على معسكر الصليبيين في حطين بقلوب تفيض بالإيمان والشوق للشهادة أو النصر، فتحطمت القوة العسكرية الضخمة لمملكة بيت المقدس الصليبية، وتهاوت راياتهم، ووقع ملكهم لوينيان وأميرهم الظالم أرناط في الأسر، وانتصر الحق وزهق الباطل، وصارت الطريق إلى القدس مفتوحة وممهدة أمام جند الإسلام بعد أن تحطمت العمود الفقري لجيش الاحتلال في تلك الموقعة الفاصلة التي غيرت مجرى تاريخ الشرق الأوسط بأكمله.

ولم يضع صلاح الدين الوقت بعد حطين، بل سارع بجيشه المظفر لفتح المدن الساحلية والقلاع الصليبية الواحدة تلو الأخرى، فحرر عكا ويافا وجنين ونابلس وعسقلان، ليعزل القدس عن أي إمدادات قد تأتيها من وراء البحار عبر المتوسط. وفي سبتمبر من نفس العام، ضرب صلاح الدين الحصار حول القدس الشريف، وتحصن الغزاة داخل أسوارها وبدأوا في الدفاع عنها بكل ما أوتوا من قوة وخوف من مصير أسود ينتظرهم إذا تذكر المسلمون مجزرة عام ألف وتسعة وتسعين. لكن صلاح الدين ورجاله كانوا يحملون أخلاق الإسلام العظيم، فضيقوا الحصار ونصبوا المنجنيقات ونقبوا الأسوار حتى أدرك

الصليبيون أن المدينة ساقطة لا محالة، فطلب قائد الحامية الصليبية باليان بن بيرسان الصلح والتسليم.

دخل صلاح الدين الأيوبي القدس فاتحاً ظافراً في السابع والعشرين من رجب، وهو نفس اليوم الذي شهد رحلة الإسراء والمعراج لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وكأن الأقدار الإلهية تؤكد على الترابط الوثيق بين العقيدة والنصر في هذه الأرض المباركة. وهنا تجلت عظمة الإسلام وبهاء وجلال أخلاقه النبوية الصافية، فرغم أن الصليبيين كانوا يتوقعون رداً زلزالياً ومجازر جماعية انتقاماً لما فعله آباؤهم بالمسلمين قبل قرن، فإن صلاح الدين عفا عنهم وأمنهم على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم، وسمح لمن يريد الرحيل بالخروج بسلام مقابل فدية مالية بسيطة، بل إنه وأخاه العادل دفعا الفدية من مالهما الخاص عن آلاف الفقراء والنساء من الفرنجة الذين لم يملكوا المال، وسمح لنساء الصليبيين وأطفالهم باللحق بأزواجهم وآبائهم، وترك للمسيحيين الشرقيين الأصليين كنائسهم وممتلكاتهم وعاملهم بكل عدل وإنصاف تعبيراً عن الالتزام الصارم بالعهدة العمرية الخالدة.

تطهير المسجد الأقصى كان الحدث الأهم والأبرز في ذلك اليوم المجيد، فاجتمع المسلمون وحماة الأرض وبدأوا في غسل ساحات المسجد بماء الورد والمسك، وأزالوا الصليب الكبير الذي كان يرتفع فوق قبة الصخرة المشرفة، وأعادوا المحاريب والمنبر إلى مكانهما، وارتفع صوت الأذان مكبراً ومهللاً في

سماء القدس بعد غياب طويل، وأقيمت أول صلاة جمعة بحضور السلطان صلاح الدين الأيوبي والعلماء والقادة، وخطب القاضي محيي الدين بن الزكي خطبة بليغة هزت القلوب والوجدان، حمد فيها الله الذي نصر عبده وأعز جنده وطهر بيته المقدس من دنس الشرك والعدوان وأعاد الأمانة إلى أصحابها الشرعيين.

ولم ينس صلاح الدين الأيوبي الوفاء بعهد أستاذه الراحل نور الدين زنكي، فأمر فوراً بإحضار ذلك المنبر الخشبي العظيم الذي صُنع في حلب وحُفظ لسنوات طويلة انتظاراً لهذه اللحظة، وتم وضعه في محراب المسجد الأقصى المبارك ليكون شاهداً حياً على عمق التخطيط واليقين والوفاء الذي ميز جيل التحرير والاسترداد. هذا المنبر الذي عُرف عبر التاريخ باسم منبر صلاح الدين ظل قائماً يلقي من فوقه الخطباء كلمات الحق والتوحيد لقرون متطاولة حتى امتدت إليه يد الغدر الصهيوني بالإحراق في العصر الحديث، مما يظهر التشابه العجيب والمستمر بين سلوك الغزاة الطارئين عبر التاريخ وسلوك أهل الأرض وحماتها الأوفياء.

ولكي يضمن صلاح الدين استقرار الأمن وحماية فلسطين والقدس من أي أطماع صليبية مستقبلية، وتثبيت الهوية العربية والإسلامية للأرض بشكل نهائي وقانوني، أطلق مشروعاً عبقرياً وفريداً يُعرف في الفقه والتاريخ باسم وقفية أرض

فلسطين. قام صلاح الدين بتحويل مساحات شاسعة من الأراضي الزراعية والبيوت والعقارات والمزارع في القدس والخليل ونابلس وشتى بقاع فلسطين إلى أوقاف إسلامية عامة ومؤبدة لا يجوز بيعها ولا شراؤها ولا التنازل عنها ولا توريثها، بل يُصرف ريعها وخيراتها ومحاصيلها على عمارة المسجد الأقصى والمسجد الإبراهيمي، ودعم صمود العائلات الفلسطينية المرابطة، وبناء المدارس والمستشفيات والتكايا الإطعامية مثل التكية الإبراهيمية التي لا تزال تطعم الفقراء في الخليل حتى يومنا هذا منذ عهد صلاح الدين.

هذه الوقفية العظيمة شكلت شبكة أمان اقتصادي واجتماعي وثقافي وديموغرافي حمى الوجود الفلسطيني وثبت الفلاحين في أراضيهم وقراهم لقرون طويلة، حيث ارتبط الإنسان بالأرض برباط شرعي وقانوني مقدس يجعل من حماية شبر واحد من أرض فلسطين واجباً دينياً للدفاع عن وقف من أوقاف المسلمين العامة التي تشترك فيها الأمة بأسرها من مشارق الأرض إلى مغاربها. وجلب صلاح الدين عائلات وقبائل عربية ومغربية مجاهدة من شمال إفريقيا والعراق والحجاز وأسكنهم في القدس ومحيطها وحول المسجد الأقصى لحمايته وحراسته والدفاع عنه، فأنشأ لهم حارات خاصة مثل حارة المغاربة الشهيرة التي هدمها الاحتلال الصهيوني بعيد احتلاله للمدينة في عام سبعة وستين، مما يؤكد على أن دماء وعروق أهل فلسطين اليوم

تختلط بدماء أولئك المجاهدين وحماة الأرض الذين جاؤوا مع صلاح الدين وصنعوا نصرها وصانوا تاريخها.

إن ملحمة صلاح الدين وحماة الأرض في فلسطين تقدم للكاتب والباحث والمبتدئ أعظم درس في فقه الصراع وفهم نواميس التاريخ، فهي تثبت بالدليل القاطع الذي لا يتطرق إليه الشك أن السيادة الإسلامية على هذه الأرض هي الضمانة الوحيدة والفريدة لتحقيق العدل والسلام الشامل لجميع بني البشر بمختلف أديانهم وأعراقهم. فحين حكم الصليبيون فلسطين، تحولت الأرض إلى ساحة للمجازر والتطهير العرقي والاستعباد، وحين استردها المسلمون بقيادة صلاح الدين، عادت لتكون واحة للأمن والأمان والتسامح، حيث عاش المسيحي والمسلم واليهودي في كنف العدالة الإسلامية دون خوف على نفس أو مال أو معتقد، وهو الدرس التاريخي الذي يتجاهله العالم اليوم وهو يرى ما تفعله الآلة الصهيونية بأهل الأرض الأصليين من تدمير وإبادة وتشريد.

إن روح صلاح الدين وصمود حماة الأرض الأوائل لا تزال حية ونابضة في تفاصيل المقاومة الفلسطينية المعاصرة، فالشعب الفلسطيني الذي يرفض الاستسلام ويرفض التنازل عن القدس وعن المسجد الأقصى وعن حق العودة إنما يستمد وعيه ويقينه ويقينه من تلك الصفحة المشرقة التي تثبت أن الاحتلال مهما طال ليله ومهما بلغت قوته ودعمه الدولي فإنه إلى زوال

حتمي ما دام هناك جيل يحمل العقيدة ويتمسك بالأرض ويتقن صناعة الوحدة والإعداد. الفلاح الفلسطيني الذي يعيد بناء بيته المهدوم ويمسك بمحراثه ليزرع شجرة زيتون جديدة مكان التي أحرقها المستوطنون هو التجسيد الحي لروح حماة الأرض الأوفياء الذين لم تكسرهم سنوات الأسر الصليبي الطويلة، بل خرجوا من تحت الرماد ليعلنوا عروبة فلسطين وإسلاميتها الخالدة التي ستبقى عصية على التزوير والتصفية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

الفصل الخامس

إن تتبع مسار التاريخ الحديث لأرض فلسطين المباركة ينقلنا من ضياء عهود التحرير والاستقرار والسيادة الإسلامية، إلى حقبة من أحلك وأقسى الفترات التي مرت بها الأمة العربية والإسلامية، وهي حقبة المؤامرة الدولية المنظمة وتكالب القوى الاستعمارية الكبرى لسرقة الأرض واقتلاع شعبها الأصلي من دياره. هذا الفصل يتناول بالبحث والتحليل والسرد المسترسل المنساب قصة خروج فلسطين من المظلة العثمانية الجامعة، وكيف حيكت خيوط المؤامرات في الغرف الدولية المظلمة عبر الاتفاقيات السرية والوعود الباطلة، وصولاً إلى الانتداب البريطاني وتسهيل الهجرة الصهيونية المنظمة، وانتهاءً بوقوع كارثة نكبة عام ألف وتسعمائة وثمانية وأربعين، ليكون هذا السرد وثيقة شاهدة على الجريمة الكبرى التي ارتكبت بحق الإنسانية والجغرافيا والتاريخ فوق هذا التراب المقدس.

بدأت فصول المؤامرة الحديثة تتشكل بوضوح مع أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، في وقت كانت فيه الدولة العثمانية تعاني من الضعف والوهن وتكالب الأعداء عليها من كل حدب وصوب، وهو ما جعل القوى الغربية تطلق عليها لقب الرجل المريض وتستعد لتقسيم إرثها الشاسع في المشرق العربي. في هذه الأجواء، ظهرت الحركة الصهيونية العالمية في أوروبا كحركة سياسية استعمارية تسعى لإيجاد وطن قومي

لليهود، وتلاقت مصالحها الاستراتيجية تماماً مع مصالح الإمبراطورية البريطانية والقوى الغربية التي كانت تبحث عن زرع كيان غريب في قلب العالم الإسلامي يفصل مشهده الجغرافي و يضمن تمزيقه وإبقاءه في حالة ضعف وتابعية مستمرة.

وكان خط الدفاع الأول والأقوى عن فلسطين في تلك الحقبة الحرجة يتجسد في الموقف التاريخي والبطولي للسلطان العثماني عبد الحميد الثاني. أدرك السلطان بحسه السياسي والشرعي خطورة المخططات الصهيونية، وحين جاءه مؤسس الحركة الصهيونية ثيودور هرتزل يعرض عليه الملايين من الذهب والقروض المالية الضخمة لسداد ديون الدولة العثمانية مقابل السماح بالهجرة اليهودية إلى فلسطين ومنحهم قطعة أرض هناك، جاء رد السلطان حاسماً ومزلزلاً يسجله التاريخ بمداد من نور. رفض السلطان استقبال هرتزل وأرسل إليه رسالته الشهيرة التي قال فيها إنني لا أستطيع أن أبيع ولو قدماً واحداً من هذه الأرض، لأنها ليست ملكي بل هي ملك أمتي، وقد قاتل شعبي من أجل هذه الأرض وسقاها بدمائه، وليحتفظ اليهود بملاييهم، وإذا مُزقت دولتي يوماً ما فإنه سيكون بإمكانهم أخذ فلسطين بلا ثمن، أما وأنا حي فإن عمل المشرط في بدني أهون علي من أن أرى فلسطين قد بُترت من دولتي.

بسبب هذا الموقف المبدئي والشجاع، تآمرت القوى الدولية والحركات السرية لإسقاط السلطان عبد الحميد الثاني، وتم عزله عن العرش في عام ألف وتسعمائة وتسعة، لتبدأ الدولة العثمانية في الانهيار السريع والدخول في أتون الحرب العالمية الأولى، وهي الحرب التي كانت وبالاً على المشرق العربي وجلبت معها خطط التقسيم الفعلي التي وضعتها بريطانيا وفرنسا تحت الطاولة. وفي عام ألف وتسعمائة وستة عشر، وبينما كانت الحرب مستعرة، وقّع الدبلوماسي البريطاني مارك سايكس والفرنسي فرانسوا جورج بيكو اتفاقية سرية عُرفت باسم اتفاقية سايكس بيكو، وتم فيها رسم الحدود المصطنعة بالمسطرة والقلم لتقسيم بلاد الشام والعراق بين نفوذ الدولتين، وجعل فلسطين تحت إدارة دولية تمهيداً لتنفيذ المخطط الأكبر والسرقة الكبرى.

ولم تنتظر بريطانيا طويلاً لتكشف عن وجهها الاستعماري القبيح، ففي الثاني من نوفمبر عام ألف وتسعمائة وسبعة عشر، أصدر وزير خارجيتها آرتور بلفور رسالته المشؤومة الموجهة إلى اللورد روتشيلد أحد أقطاب الحركة الصهيونية، وهي الرسالة التي عُرفت عبر التاريخ باسم وعد بلفور. هذا الوعد تمثل في تعهد بريطانيا ببذل غاية مساعيها لإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، وهو الوعد الذي وصفه المفكرون والمؤرخون بأنه وعد ممن لا يملك لمن لا يستحق، إذ كيف تمنح دولة استعمارية تقع وراء البحار أرضاً يمتلكها شعب عربي

يعيش فيها منذ آلاف السنين لجماعات غريبة مشتتة لا تملك أي رابط قانوني أو سياسي بالمكان. لقد كان هذا الوعد باطلاً من الناحية القانونية والدولية والإنسانية، ومع ذلك تم اعتماده كمرجعية سياسية سارت عليها بريطانيا بالحديد والنار.

وفي أواخر عام ألف وتسعمائة وسبعة عشر، نجحت القوات البريطانية بقيادة الجنرال إدموند ألنبي في احتلال القدس وفلسطين بعد انسحاب الجيش العثماني، ودخل ألنبي المدينة فاتحاً ومستكبراً وأطلق كلمته الشهيرة التي كشفت عن الخلفية الفكرية والدينية لهذا الغزو حين قال الآن انتهت الحروب الصليبية. وفرضت بريطانيا صك الانتداب على فلسطين من قِبل عصبة الأمم، وهو انتداب كان في جوهره وحقيقته وتطبيقه العملي أداة استعمارية لتنفيذ وعد بلفور وتجهيز الأرض والظروف الديموغرافية والعسكرية لسرقة فلسطين وتسليمها للحركة الصهيونية.

طوال ثلاثين عاماً من الانتداب البريطاني المظلم، مارست سلطات الاحتلال البريطاني أبشع سياسات التضييق والتنكيل بحق الشعب الفلسطيني الأصلي، وفي المقابل فتحت الأبواب والموانئ على مصراعيها لتدفق موجات الهجرة اليهودية المنظمة القادمة من أوروبا وروسيا، وسهلت لهم تملك الأراضي العربية من خلال قوانين جائرة، ودعمت بناء المستوطنات والقلاع العسكرية، وسمحت لليهود بتشكيل ميليشيات مسلحة

إرهابية مثل الهاغانا والشتيرن والإرغون، ودربتهم على فنون القتال الحديث والتخطيط العسكري.

وفي المقابل، كان الفلاح والمواطن الفلسطيني يُعاقب بالإعدام أو السجن المؤبد إذا عُثر في بيته على رصاصة واحدة أو سكين صغيرة، وتم قمع كل المحاولات السلمية والسياسية لأهل الأرض للدفاع عن أنفسهم. ورغم هذا البطش والتواطؤ البريطاني الصهيوني الضخم، لم يستسلم شعب فلسطين ولم يرفع الراية البيضاء، بل خاض ثورات وانتفاضات باقلة وعظيمة دفاعاً عن كرامته وأرضه ومقدساته. فاندلعت ثورة البراق عام ألف وتسعمائة وتسعة وعشرين لحماية المسجد الأقصى وحائط البراق من الأطماع اليهودية، وتلتها حركة المجاهد الشيخ عز الدين القسام الذي أعلن الجهاد المسلح من أحراش يعبد واستشهد مقبلاً غير مدبر ليصبح رمزاً للمقاومة والتضحية، ثم تفجرت الثورة الفلسطينية الكبرى عام ألف وتسعمائة وستة وثلاثين والتي شهدت أطول إضراب عام في التاريخ الإنساني الحديث استمر لستة أشهر متواصلة، وسطر فيها الشعب ملائم من الصمود العسكري والشعبي لولا التدخلات الدولية والوعود العربية الخادعة التي أوقفت الثورة.

بعد أن أنهت بريطانيا مهمتها الاستعمارية وحققت هدفها في بناء الركائز الأساسية للكيان الصهيوني على أرض فلسطين، وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، أعلنت بريطانيا بكل خبث ومكر

عن إنهاء انتدابها وانسحابها من فلسطين في عام ألف وتسعمائة وثمانية وأربعين، وأحالت القضية إلى هيئة الأمم المتحدة حديثة النشأة، والتي أصدرت قرار التقسيم الجائر رقم مائة وواحد وثمانين، الذي قضى بتقسيم أرض فلسطين بين أصحاب الأرض الأصليين واليهود المهاجرين الطارئين، وهو القرار الذي رفضه الفلسطينيون والعرب تماماً لأنه يشرعن السرقة والقرصنة الدولية.

وفي الخامس عشر من مايو عام ألف وتسعمائة وثمانية وأربعين، ومع خروج آخر جندي بريطاني، أعلنت الحركة الصهيونية عن قيام ما يسمى بدولة إسرائيل فوق أرض فلسطين المباركة، لتنطلق في ذات الوقت أبشع فصول المأساة الإنسانية الحديثة والتي عُرفت باسم النكبة. شنت الميليشيات الصهيونية المسلحة، المدعومة بالسلاح والتدريب البريطاني والغربي، حرب إبادة وتطهير عرقي منظم ومنهجي ضد المدنيين الفلسطينيين العزل، فارتكبت عشرات المجازر الدموية الرهيبة التي تقشعر لها الأبدان، مثل مجزرة دير ياسين، وقبية، واللد، والطنطورة، حيث قُتل الأطفال والنساء في بيوتهم، وبُقرت بطون الحوامل، وهُدمت السقوف فوق رؤوس ساكنيها لإثارة الرعب والخوف في نفوس الآمنين وإجبارهم على الرحيل.

أسفرت النكبة عن هدم وتدمير أكثر من خمسمائة قرية وبلدة فلسطينية بالكامل ومحوها من الخريطة الجغرافية لدفن معالمها

العربية، وتم تشريد وطرد وقذف أكثر من ثمانمائة ألف فلسطيني خارج ديارهم وأراضيهم وبيوتهم، ليتحولوا بين ليلة وضحاها إلى لاجئين مشتتين في مخيمات البؤس واللجوء في الضفة الغربية وقطاع غزة والدول العربية المجاورة، يحملون في أيديهم مفاتيح بيوتهم القديمة وصكوك ملكية أراضيهم التي سرقها الغزاة الطارئون، ومستندين إلى يقين تاريخي لا يموت بأن الحق لا يسقط بالتقادم مهما بلغت قوة القراصنة.

إن قراءة أحداث المؤامرة الحديثة وسرقة الأرض تمنح الكاتب المبتدئ والباحث الواعي رؤية واضحة تفضح كل الأساطير الأيديولوجية والسياسية التي يحاول الاحتلال ترويجها للعالم. فالكيان الصهيوني لم يقم على أرض قاحلة كما يدعون، بل قام على أنقاض مجتمع مدني وثقافي واقتصادي متكامل ومزدهر، صودرت بيوته ومزارعه ومدنه بقوة السلاح والتواطؤ الدولي. وهذه المؤامرة الحديثة تبين أن الصراع في فلسطين ليس صراعاً بين حقين، بل هو صراع كلاسيكي بين صاحب حق أصيل يمتلك الأرض بالتاريخ والآثار والشرعية الإلهية والقانونية، وبين مستعمر إحلالي طارئ جاء عبر قطار الاستعمار الغربي ليسرق المكان ويزيف هويته ويزور معالمه.

ورغم فداحة النكبة وقسوة السنين وتوالي النكسات والمؤامرات الدولية التي تلتها، فإن سرقة الجغرافيا لم تنجح في سرقة التاريخ أو محو الهوية من صدور الأبناء والأحفاد. فالشعب الفلسطيني

الذي تعرض لأكبر عملية تطهير عرقي منظم في العصر الحديث أثبت أنه شعب عصي على الفناء والنسيان، وما زال الطفل الفلسطيني المولود في المخيم أو الشتات يرضع حب فلسطين ويعرف تفاصيل قريته ومزرعة جده المعمرة، ويقود المقاومة بوعي وإصرار يفاجئ العالم ويثبت أن الكبار يموتون لكن الصغار لا ينسون، وأن هذه الأرض التي نبتت بالعروبة والإسلام ستبقى وفية لأصحابها وتلفظ الغزاة الطارئين مهما طال مكثهم ومهما بلغت قوتهم وعنجهيتهم، ليعود الحق إلى نصابه وتعود فلسطين حرة أبية عربية إسلامية من بحرها إلى نهرها.

الفصل السادس

إن قراءة صفحات التاريخ الطويل لأرض فلسطين المباركة، وتأمل فصولها الممتدة من عهد الجد الكنعاني الأول إلى تضحيات حماة الأرض الأوفياء، وصولاً إلى قسوة المؤامرة الحديثة وألم النكبة المستمر، كل ذلك لا ينبغي أن يقف بالكاتب والباحث والمسلم عند حدود البكاء على الأطلال أو اجترار مآسي الماضي. إن الغاية الأسمى من فهم التاريخ واستيعاب الحق الشرعي والتاريخي هي صياغة الحاضر وبناء المستقبل؛ ومن هنا يأتي هذا الفصل السادس والأخير ليمثل الجسر العقدي والعملي الذي يربط بين وعي الأمة وواقعها، مركزاً على تحديد الواجبات والمسؤوليات المنوطة بالجيل المعاصر، ومستشرفاً في الوقت ذاته بشارات الفجر القادم والنصر الحتمي التي تفيض بها نصوص الوحي الشريف وسنن التاريخ الكونية، ليكون هذا السرد بمثابة دليل عمل وشعلة أمل تنير طريق العودة والتحرير.

يبدأ الحديث عن واجبنا المعاصر واليوم من نقطة مركزية وجوهرية، وهي خوض معركة الوعي والثقافة بكافة أبعادها وأدواتها الحديثة، فالقضية الفلسطينية في جوهرها هي قضية وعي وهوية قبل أن تكون معركة مدافع وجيوش. إن الاحتلال الصهيوني الطارئ لم يكتفِ بسرقة الجغرافيا وطرد السكان، بل رصد، ولا يزال يرصد، ميزانيات هائلة وجهوداً مؤسسية جبارة لتزييف الوعي العالمي والعربي، ومحو الرواية التاريخية الإسلامية، وإحلال رواية توراتية مخترعة مكانها. ومن هنا،

فإن الواجب الأول والأقدس على كل كاتب ومثقف ومبتدئ في عالم القلم هو التسلح بالمعرفة التاريخية الموثقة والعلمية، ونقل هذه الأمانة إلى الأجيال الناشئة بكل أمانة وإتقان؛ فالقلم في معركة الحق لا يقل أثراً عن البندقية، والكلمة الصادقة المكتوبة بوعي وإيمان قادرة على تحطيم إمبراطوريات التزييف الإعلامي والدبلوماسي التي بناها الاحتلال وداعموه عبر العقود.

إن هذا الواجب الثقافي يتطلب منا تفكيك الأساطير الصهيونية وإبراز الحقائق الكنعانية والإسلامية للأرض في كل المحافل والمنابر، وتدريس تاريخ فلسطين في البيوت والمدارس والمساجد، ليس كقصة جغرافية بعيدة، بل كجزء لا يتجزأ من عقيدة المسلم وهويته الروحية اليومية. يجب أن ينشأ الطفل المسلم وهو يعلم يقيناً أن القدس هي قبلته الأولى ومسرى نبيه، وأن الأقصى هو ثاني مسجد وُضع في الأرض بعد المسجد الحرام، وأن ذرة تراب واحدة من غزة أو يافا أو حيفا أو الخليل هي وقف إسلامي عام للأمة بأسرها لا يملك كائن من كان حق التنازل عنه أو المساومة عليه بروابط سياسية أو اقتصادية طارئة؛ فحين يرسخ هذا الوعي في القلوب والعقول، تتحصن الأمة من موجات التهويد الثقافي والتطبيع النفسي، وتبقى القضية حية نابضة تتوارثها الأجيال بكل عناد وإصرار.

ولا ينفصل الواجب المعرفي عن واجب النصرة المادية والاقتصادية والدبلوماسية، وهي المسؤولية التي تقع على عاتق

الأمة الإسلامية بأسرها بمشارق الأرض ومغاربها، فكل مسلم في عالم اليوم هو ثغر من ثغور فلسطين، ومسؤول عن تقديم كل أشكال الدعم والمساندة لأهل الأرض المرابطين في خطوط الدفاع الأولى. إن صمود الفلاح الفلسطيني في أرضه، وثبات المقدسي في حارته، وبقاء الغزي تحت وطأة الحصار والعدوان، كل هذا الثبات الأسطوري يتطلب شبكة أمان مادية تمدهم بأسباب الحياة والبقاء وتعينهم على مواجهة سياسات التضييق والتشريد وهدم البيوت اليومية. دعم المؤسسات التعليمية والصحية والإغاثية في القدس وفلسطين، وكفالة عائلات الشهداء والأسرى والمرابطين، وتفعيل سلاح المقاطعة الاقتصادية الشاملة والممنهجة لكل الشركات والكيانات التي تدعم الاحتلال أو تمول آلته العسكرية، كل هذه خطوات عملية وواجبات شرعية مباشرة تسهم في إضعاف بنيان المحتل وتقوية جبهة الحق والصمود المعاصرة.

وفي عصر الفضاء الرقمي وثورة الاتصالات الحديثة، يبرز واجب النصرة الرقمية والإعلامية كأحد أهم الأدوات الفعالة والمؤثرة في صياغة الرأي العام العالمي وتعرية جرائم الاحتلال. لقد كسر الإعلام البديل ومنصات التواصل الاجتماعي احتكار القوى الاستعمارية الكبرى للرواية والخبر، وصار بإمكان شاب أو كاتب مبتدئ يمتلك هاتفاً وعقلاً واعياً وقماً صادقاً أن ينقل للعالم أجمع، وبلغات مختلفة، حقيقة ما يجري

على أرض فلسطين من تطهير عرقي وأبرتهايد وإبادة جماعية؛ فالنشر المستمر، والتغريد الدائم، وتصميم المحتوى المرئي الذي يبرز جمال الهوية الفلسطينية وعروبتها، وفضح الأكاذيب الصهيونية بالدليل والبرهان، هو جهاد رقمي معاصر يسهم في عزل الكيان الصهيوني دولياً، ويحشد طاقات الأحرار والمنصفين في كل بقاع الأرض خلف قضيتنا العادلة.

وإلى جانب هذه الواجبات العملية المباشرة، فإن الركيزة الأساسية التي تمنح الجيل المعاصر القوة والثبات والصبر على التضحيات هي الإيمان المطلق واليقين الراسخ ببشارات المستقبل والنصر الحتمي التي زخرت بها نصوص الوحي الإلهي في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة. إن هذا اليقين ليس نابعاً من أمانٍ عاطفية مجردة أو أحلام يقظة دنيوية، بل هو وعد إلهي صادق لا يتخلف، ونبوءات ربانية قاطعة تؤكد أن الصراع على أرض فلسطين سينتهي حتماً بزوال الطغيان الطارئ وعودة الأرض لأصحابها الموحدين الصالحين.

القرآن الكريم، وفي مطلع سورة الإسراء، يضع لنا الخريطة المستقبلية الواضحة لطبيعة الصراع ونهايته الحتمية في آيات تتلى إلى قيام الساعة؛ فحين يتحدث المولى سبحانه عن علو بني إسرائيل وإفسادهم في الأرض مرتين، يأتي الوعد الإلهي الحاسم بالنصر والتمكين لعباد الله الموحدين في المرة الآخرة، حيث يقول عز وجل: **"فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤوا وجوهكم**

وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيراً".
إن هذه الآية العظيمة تحمل بشارة ثلاثية الأركان تملأ القلوب أملاً وثقة؛ البشارة الأولى هي إساءة وجوه المحتلين وفضح زيفهم وهزيمتهم النفسية والسياسية أمام العالم، والبشارة الثانية هي الدخول الحتمي للمسلمين إلى المسجد الأقصى المبارك فاتحين مطهرين له كما دخله الصحابة الأوائل مع عمر بن الخطاب وحماة الأرض مع صلاح الدين الأيوبي، والبشارة الثالثة هي التدمير والإهلاك والتبتير الكامل لكل ما بناه هذا الكيان الطارئ من مؤسسات وقلاع وجدران قائمة على الظلم والقرصنة.

وتكتمل هذه البشارات القرآنية بما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحاديث نبوية شريفة تفيض بالنور واليقين وتصف بدقة طبيعة الطائفة المرابطة التي تحمل راية الحق في فلسطين وتستعصي على الكسر أو الفناء رغم تكالب الأمم عليها؛ فالنبي الأكرم يقول في حديثه الخالد: "لا تزال طائفة من أمتي على الدين ظاهرين، لعدوهم قاهرين، لا يضرهم من خالفهم إلا ما أصابهم من لأواء، حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك. قالوا: يا رسول الله، وأين هم؟ قال: ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس". إن هذا الحديث الشريف يمثل أعظم شهادة تكريم ووسام شرف معلق على صدور أهل فلسطين المرابطين وحماتها المعاصرين، فهو يمنحهم صفة الظهور والقهر للعدو

بالحق واليقين، ويؤكد على صمودهم الأسطوري وثباتهم المعجز رغم خذلان القريب وتآمر البعيد ورغم اللأواء والشدائد والمجازر التي يتعرضون لها، مبشراً بنصرهم وبقائهم حراساً للأمانة حتى يأتي أمر الله والتحرير الشامل.

إن بشارات المستقبل لا تقتصر على النصوص الشرعية فحسب، بل تؤيدها وتدعمها السنن الكونية والتاريخية التي تحكم مسار الحضارات والبشرية؛ فالتاريخ لم يعرف قط احتلالاً استيطانياً إحلالياً دام إلى الأبد مهما بلغت قوته العسكرية وجبروته المادي ومهما حظي بدعم دولي أعمى. إن كل الكيانات الطارئة التي قامت على الظلم وسرقة أراضي الآخرين وإبادة السكان الأصليين، كالممالك الصليبية القديمة في الشام ونظام الأبرتهايد العنصري في جنوب إفريقيا، تهاوت وتحطمت وذهبت إلى مزابل التاريخ بعد عقود من الغرور والعنجهية، وعادت الأرض لأصحابها الحقيقيين؛ فالقوة المادية العارية من الحق الأخلاقي والشرعي تحمل في أحشائها بذور فنائها وزوالها الحتمي، والكيان الصهيوني المعاصر ليس استثناءً من هذا القانون التاريخي الصارم، بل تبدو فيه علامات التآكل الداخلي والتمزق المجتمعي والهزيمة الأخلاقية الشاملة واضحة وجلية لكل ذي بصيرة وباحث منصف.

إن الجمع بين واجبنا اليوم وبشارات المستقبل يصنع العقلية الإسلامية المتوازنة والفعالة؛ وهي العقلية التي لا تستسلم لليأس

والإحباط أمام قسوة الواقع المعاصر والمجازر المستمرة، ولا تركن في الوقت ذاته إلى التواكل والانتظار السلبي للبشارات دون عمل وإعداد؛ فالنصر الإلهي مشروط بالعمل والأخذ بالأسباب والإعداد الشامل كما فعل جيل صلاح الدين الأيوبي وجيل عمر بن الخطاب. إن كل كلمة يكتبها الكاتب المبتدئ بنية نصرة فلسطين، وكل رصاصة يطلقها مقاوم للدفاع عن عرضه وأرضه، وكل شجرة زيتون يغرسها فلاح في تراب أجداده، وكل مقال أو تدوينة تنشر لتعرية المحتل، كلها لبنات حقيقية وجوانب أساسية تسهم في بناء صرح النصر القادم الموعود وتسجيل صفحات التحرير الجديدة.

وفي ختام هذا الكتاب الشامل بصوله ومباحثه وسرده المسترسل العذب، نصل إلى يقين راسخ لا يتزعزع وعقيدة راسخة ضاربة في أعماق النفس والزمن تفيد بأن فلسطين كانت وما زالت وستبقى أرض الأنبياء ومسرى الأمين وعرين الكنعانيين وحصن الإسلام الحصين؛ وأن كل المؤامرات الدولية والسرقات الصهيونية ومحاولات التزييف والتصفية ليست إلا زبداً راشحاً يذهب جفاءً، بينما يبقى الحق التاريخي والشرعي والعقدي للمسلمين راسخاً في الأرض كالجبال الشامخة. إن الصراع على هذه الأرض المباركة قد يطول وتشتد لجلجته وتغلو أثمانه وتكثر تضحياته، ولكن فجر الحرية والعودة قادم لا محالة، وسيلتقي أبناء الأمة الموحدون وحماة الأرض الأوفياء في ساحات

المسجد الأقصى المبارك مكبرين ومهللين، يرفعون رايات الحق والعدل والتسامح الإسلامي فوق قبة الصخرة المشرفة، ليعيدوا كتابة التاريخ من جديد ويثبتوا للعالم أجمع أن الأرض لله يرثها عباده الصالحون، وأن العاقبة للمتقين، وهو أصدق القائلين ووعده الحق الذي لا يتخلف أبداً.

الخاتمة

وهكذا، نصل إلى ختام هذا السرد الطويل الذي أردناه أن يكون حكاية للأرض، وشهادة للتاريخ، وبوصلة للأجيال. إن تتبع

مسيرة فلسطين عبر فصول هذا الكتاب يضع بين أيدينا حقيقة واضحة كالشمس لا حجاب يغطيها؛ أن هذه الأرض لم تكن يوماً هوامش عابرة في جغرافيا المشرق، بل كانت، ولا تزال، قلب العالم النابض، ومحور الصراع بين الحق والباطل، والواحة التي تلاقت فوق ترابها الشرعية التاريخية بالقداسة الإيمانية.

لقد رأينا كيف أن الجد الكنعاني الأول خط بيمينه وعرقه أولى ملامح الهوية العربية للمكان، وبنى مدائنها التي لا تزال تنطق باسمه قبل أن تطأ الأرض أي جماعات طارئة بقرون متطاولة. وعشنا مع أنبياء الله ورسله عليهم السلام رحلة التوحيد الخالدة، وتبينا بالمنطق والقرآن كيف أن المسلمين الموحدين هم الورثة الحقيقيون لهذا الإرث الإيماني العظيم، وليس أولئك الذين بدلوا وحرفوا واتخذوا من العرق ديناً والاستعلاء القومي غاية. ثم شهدنا بزوغ الفجر الإسلامي برحلة الإسراء والمعراج الإعجازية التي عقدت ميثاقاً روحياً أبدياً بين مكة والقدس، ليتوج هذا العقد بعدل الفتح العمري المجيد الذي أرسى قواعد السلام والتعايش وصان الملكية العربية للأرض من خلال العهدة العمرية الخالدة.

ولم يتوقف التاريخ عند سنوات الأسر؛ بل علمنا من ملحمة الناصر صلاح الدين الأيوبي وحماة الأرض الأوفياء أن ليل الغزاة مهما طال، ومهما بلغت سطوة جيوشهم، فإن عاقبتهم إلى زوال، وأن الأرض تلفظ كل غريب لا يمتزج قلبه بترابها ولا

يحمل في روحه قيم العدل والرحمة الإسلامية. وحين وصلنا إلى العصر الحديث، فككنا معاً خيوط المؤامرة الدولية الدنيئة التي سعت بكل مكر وقسوة لسرقة الجغرافيا وتشريد الشعب الأعزل، لتثبت لنا الأحداث المعاصرة أن كل تلك السرقات والمجازر والوعود الباطلة لم تزد هذا الشعب إلا تجذراً في أرضه وتشبثاً بمفاتيح عودته ويقينه.

إن هذا الكتاب لا ينتهي بانتهاء صفحاته، بل هو دعوة تبدأ الآن في نفس كل قارئ وكاتب مبتدئ؛ دعوة لحمل الراية، وخوض معركة الوعي بكل ثبات، وصيانة الرواية الحق من التزييف والنسيان. إن البشارات التي تفيض بها نصوص الوحي وسنن التاريخ الكونية تؤكد لنا بوضوح لا لبس فيه أن المستقبل لهذه الأرض هو مستقبله الإسمي العربي الأصيل، وأن طغيان الاحتلال ليس سوى غمامة صيف عابرة في عمر التاريخ الطويل لفلسطين.

ستبقى القدس يبوسية الجذور، عمرية الفتح، صلاحية التحرير، إسلامية الهوى، وسيبقى أبناؤها المرابطون حراساً للأمانة، يغرسون الزيتون ويعيدون بناء البيوت وينتظرون فجر النصر الموعود؛ ذلك الفجر الذي سنلتقي فيه حتماً في باحات المسجد الأقصى المبارك مهللين ومكبرين، لنعلن للعالم أجمع أن الحق قد عاد إلى نصابه، وأن الأرض قد ورثها عباد الله الصالحون، وما ذلك على الله بعزيز.

النـهاية